السلام مع الإسلام

رؤية غربية إلى إمكانية التصالح مع الإسلام

أ. د. فلوي إ. داول*

منذ انتهاء الحرب الباردة، برزت فرضيتان مهيمنتان حول النظام العالمي بحيث تتضارب إحداهما مع الأخرى. وقد تم التعبير عنهما بشكل مباشر، وربما بسذاجة، في كتابات كل من المفكرين السياسيين الأميركيين، فرانسيس فوكوياما وصموئيل هنتنغتون. ولكن هاتين النظريتين تبدوان أكثر رواجاً وأكثر إثارة للانقسام على الساحة العالمية إذا ما أعيرتا أهمية كبيرة. فعلى قاعدتهما، تقع الخلافات بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأميركية حول المسائل المتعلقة بالحرب والسلم على سبيل المثال.

وقد تم التعبير عن الفرضية الأولى من قبل فوكوياما، في مقالة له بعنوان «نهاية التاريخ»، نشرت في صحيفة أميركية مغمورة في العام ١٩٨٩[١]. ولا يقصد فوكوياما نهاية الأحداث في العالم، على الرغم من الخطورة التي يمكن أن تشكلها، بل نهاية الأيديولوجيات التي تحكم المنظومة الاجتماعية والسياسية التي تولد، بالتالي، الأحداث العالمية.[٢]

وتم بلوغ «نهاية التاريخ» من خلال انتصار الديمقراطية الليبرالية التي تفوقت على الأيديولوجيات الأخرى، لا سيما الفاشية والشيوعية. ومن الصعب إنكار أن الليبرالية الاقتصادية، أي «العولمة» بالمفهوم المعاصر، آخذة في الانتشار. وما يحرص فوكوياما على تأكيده هو أن الليبرالية السياسية، حيث تقوم الدولة

* أستاذة الفلسفة في جامعة ميموريال بنيوفاوند لاند.

بإدراك وحماية الحق العالمي للإنسان في الحرية من خلال نظام قانوني. وبالنتيجة، حيث لا يتواجد كيان الدولة إلا بإجماع المواطنين، لا بد لها من أن تتبع الليبرالية الاقتصادية. وأظهرت كل من الفاشية والشيوعية، آخر معاقل المعارضة الليبرالية، عن قدرة كل منهما على تدمير ذاتها؛ الأولى جراء فشلها الذريع خلال الحرب العالمية الثانية مادياً وعقائدياً، والثانية عند انهيارها اقتصادياً وروحياً مع سقوط الاتحاد السوفياتي. ويتساءل فوكوياما، إزاء انهيار الشيوعية والفاشية[٣]، عما إذا كانت هناك أيديولوجيات أخرى منافسة أو ما يعادلها من القوى التواقة إلى الليبرالية التي قد توفرها إيديولوجية أخرى.

ويعتبر فوكوياما، باختصار، أن التشدد الديني في المسيحية واليهودية والإسلام، شاهد، بحسب قوله، على «الفراغ الروحي» للمجتمعات التي تعتمد الليبرالية. ورغم إدراكه للخلل الموجود في العلمانية الليبرالية، لا يعتقد بإمكانية نجاح المجتمعات الدينية، ليس في الغرب على الأقل[٤]. وإن لم يكن الدين، فماذا إذاً عن القومية أو عن الأيديولوجيات العرقية والعنصرية الأخرى التي لا يمكن اعتبارها الصورة الحسنة عن انتماء ثقافي، وإنما قومية منظومية متطرفة نابعة من رغبة بالاستقلال عن مجموعات عرقية وعقائدية أخرى مسيطرة. ويفيد فوكوياما في كتابه: **«في حين أن تلك الأيديولوجيات يمكن أن تشكل مصدراً للنزاع بالنسبة للمجتمعات الليبرالية، فإن ذلك الصراع لا ينبع من الليبرالية نفسها وإنما من الواقع القائل بأن الليبرالية المطروحة غير كاملة المعالم»**[٥]. وفي الوقت الذي يستحيل فيه، بديهياً، السيطرة على المزيد من الإيديولوجيات الشاملة الجديدة أو التناقضات المستترة في الديمقراطية الليبرالية، فقد أثبت قرنان من النجاح عكس ذلك.

كما أورد فوكوياما، في فرضيته عن نهاية التاريخ، العلاقات الدولية. فمن وجهة نظره، يفترض بالدول الحديثة؛ أي الديمقراطيات الليبرالية في الغرب التي شارفت على النهاية، أن تكون منشغلة في عملية التسويق المشتركة المتنامية في علاقاتها الدولية، وتلك هي انشغالات دول ما بعد الحرب في أوروبا الغربية، **«لا سيما تلك المترهلة، والمزدهرة، والمكتفية ذاتياً، وذات النزعة الروحية، وذات الإرادة الضعيفة، والتي كان إنشاء السوق المشتركة»**[٦] فيها أحد أكثر المشاريع بطولة. ومع هذا لم ينته الصراع الدولي؛ إذ لا تزال هناك دول في التاريخ قد تنتفض في وجه بعضها البعض أو في وجه الدول الحديثة التي يجري فيها عنف قومي وعرقي، وإرهاب، وحروب من أجل التحرر الوطني. غير أن الحروب الواسعة النطاق والبلدان الكبرى التي لا تزال في قبضة التاريخ آخذة في الزوال.

ويرى فوكوياما بأنه أمر محزن أيضاً «**فالكفاح من أجل الاعتراف بالحقوق والإرادة التي تدفع بالإنسان إلى المخاطرة بحياته من أجل هدف مجرد بكل معنى الكلمة، والكفاح الإيديولوجي عبر العالم الذي استلزم جرأةً، وشجاعةً، وخيالاً، ومثالية، كلها ستحل محلها الحسابات الاقتصادية، والحل اللامتناهي للمشاكل التقنية والبيئية، وإرضاء مطالب المستهلكين المتطورة. ففي فترة ما بعد التاريخ، لن يكون هناك فن أو فلسفة، وإنما عناية دائمة بمتحف التاريخ الإنساني فحسب**»(٧).

وفي رد منه على الانتقادات التي وجهت إلى مقالته، عبّر فوكوياما عن دعمه الصريح لليبرالية وعن إيمانه الشغوف بتفوق الديمقراطية الليبرالية على أي نظام سياسي آخر، مدركاً أيضاً «**بأن الدول الليبرالية لا تحيل مواطنيها إلى أهداف أكبر من مسؤوليات العقلية المواطنية العامة.. ولكن هذا الأمر يعني أيضاً أن الفراغ القابع في حريتنا يمكن أن يتم ملؤه بأي شيء كالكسل، والانغلاق على الذات، وكذلك الاعتدال، والشجاعة، والشغف بالثراء، والانشغال في الربح التجاري، بالإضافة إلى حب التفكير، وملاحقة الجمال والابتذال بجانب الروحية. كما أن هناك جانباً في الإنسان يميل إلى الاستخفاف بالحياة الساعية إلى المخاطرة والبطولة والتضحية**»(٨).

فانطلاقاً من مبدأ الحرية الذي تقوم عليه الديمقراطية الليبرالية، يجب الفصل بين الكنيسة والدولة، وإلا ستبقي الدولة على مبدأ القمع ولن يتمتع المرء بأية حرية فيه. وتفسير هذا الأمر يعود بكل بساطة إلى أن الدولة الليبرالية منفتحة، على جميع الأديان، ويسمح لكل شخص بعبادة خالقه على طريقته، كما جاء في الخطاب الفصيح لجون تايلر، الرئيس التاسع للولايات المتحدة(٩). وتمت رؤية فصل كهذا، من منظور أكثر حدة، على أنه معاد للدين ولجميع الأخلاقيات المرتبطة بالأديان. ولكن، كما ورد في المقال، فإن الديمقراطية الليبرالية ابتكار مسيحي بحت. ويعتبر فوكوياما بأنه، وبنتيجة الأمر، يتوجب على الديمقراطية الليبرالية أمر ضروري لها ألا وهو ترك مواطنيها في حيرة، شرفاء وغير شرفاء.

أما الفرضية الثانية المعاكسة، التي عبّر عنها هنتنغتون، ظهرت للمرة الأولى في مقالة له في مجلة Foreign Affairs في صيف ١٩٩٣ بعنوان «صدام الحضارات»(١٠). فبدءاً من الحروب الدينية المؤججة لحرب الثلاثين عاماً التي انتهت بمعاهدة «سلام ويستفاليا» في العام ١٦٤٨، إلى حروب الملوك والأمراء المنتهية بالثورة الفرنسية وما بعدها(١١)،

وصولاً إلى صراعات القرن التاسع عشر بين الدول القومية[١٢] والتي أدت، مع الثورة الروسية، إلى حروب إيديولوجية بين الديمقراطية الليبرالية والفاشية والنازية والشيوعية، فإن تاريخ الصراع في العالم الحديث لم ينته كما يفترض فوكوياما؛ بل على العكس، فإن الحروب داخل الحضارة الغربية ستعقبها صراعات بين **«الغرب وباقي دول العالم»**[١٣]، وصدامات ومناوشات بين الحضارات[١٤]، وكذلك نشوء كيانات ثقافية واسعة تشمل أمماً عديدة ذات مركز واحد، وثقافة مشتركة، وعلى الأغلب، ديناً واحداً. إن الدول المعرّفة سابقاً إيديولوجياً آخذة في التفكك، لتحل محلها مجتمعات معرّفة ثقافياً تتضمن أعراقاً وأدياناً حيث عادت أحقاد سابقة ضد المجتمعات المختلفة عنها ثقافياً، بالظهور من جديد، في يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي. وقد تم صقل الهوية الحضارية في تعارض وعداء مع الهويات الأخرى. فالحضارة الغربية هي في أوج قوتها، مشكلة بذلك تهديداً غير مقصود للحضارات الأخرى في حين تواصل تقدمها الاقتصادي وامتدادها الثقافي.

في الواقع، يعارض هنتنغتون قناعة فوكوياما المتفائلة بأنه، في النهاية، لا مجال لمقاومة الليبرالية الاقتصادية والسياسية، مع الملاحظة بأن **«الثقافة الغربية تختلف أساسياً عمّا يسود في الثقافات الأخرى. ولا تلقى الأفكار الغربية عن الفردية، والليبرالية، والنظام الدستوري، وحقوق الإنسان، والعدالة، والحرية، وسيطرة القانون، والديمقراطية، والأسواق الحرة، وفصل الكنيسة عن الدولة، سوى صدىً خفيفاً لدى الثقافات الإسلامية والكونفوشيوسية واليابانية والهندية والبوذية والأرثوذكسية»**[١٥]. كما **«أن القيم البالغة الأهمية في الغرب هي الأقل أهمية حول العالم»**[١٦].

أضف إلى ذلك، أن محاولات الغرب لنشر الحرية والعدالة في الخارج وتشجيع الانتخابات الحرة، على سبيل المثال، قد تؤدّي إلى نتائج غير مرجوة. ويفيد هنتنغتون بأن الأوتوقراطية، في العديد من الدول العربية التي ترقى إلى مستويات جديدة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية، تفسح المجال أمام حكومات منتخبة ديمقراطياً قامت بتدعيم الحركات الإسلامية. وباختصار، تقوم الديمقراطية الغربية في العالم الإسلامي بتدعيم القوى السياسية المعادية للغرب[١٧]. وبشكل عام، ينظر إلى العولمة الاقتصادية وانتشار الثقافة الغربية من قبل المجتمعات غير الغربية على أنها، وبكل بساطة، الشكل الحديث للغربية، أو أكثر تحديداً، للإمبريالية الأميركية. كما يقوم كل من مجلس الأمن التابع للأمم

المتحدة، وصندوق النقد الدولي، بشكل روتيني، بتعزيز المصالح الغربية باسم المجتمع الدولي[١٨]. فإن عبارة: «**المجتمع الدولي**»، **بالذات قد أصبحت تعبيراً جماعياً ملطّفاً، بعد أن حلّت محل «العالم الحر»، من أجل إعطاء الشرعية الكاملة للأعمال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى**»[١٩].

ويعد الإسلام أحد أكثر الحضارات مقاومة للغزو الثقافي الخارجي لا سيما الغربي، وعلى عكس باقي الحضارات التي تقع في بقعة معينة، يشكل المسلمون أغلبية في العديد من الدول وأقليات ذات شأن في العالم بأسره. وبحسب هنتنغتون، فإن الأمة، أي مجتمع المسلمين عبر العالم في كل زمان، هي «حضارة» لا تقوم على الدين فحسب وإنما هي اندماج تام لجميع مصالح أفرادها. وهي لا تنحصر في دولة أو عرق أو مكان. وحيث يحتل أفرادها ولاية معينة، يقول هنتنغتون بأن الأمة لها «مجاورات دموية»؛ أي إنها في صراع عنيف مع جيرانها، بمن فيهم الجيران المسلمين[٢٠]. وحيث تتواجد «الأمة»، يكون هناك صعوبة في اندماجها مع الثقافات الكبرى. والشعب المسلم غير قابل للهضم، بحسب تعبير هنتنغتون؛ إذ ليس من السهل بالنسبة إليهم الاندماج. ويصار إلى حقن المسلمين ضد أولئك الخارجين عن الأمة وذلك بعد تقسيم العالم إلى دار السلام و دار الحرب. وحتى عندما يعمدون إلى الهجرة إلى ثقافة غربية، كما في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية، فيعيشون في عزلة يفرضونها على أنفسهم بمنأىً عن مضيفيهم.

ويؤكد هنتنغتون بأن المسيحية سوف تُجتاح قريباً من قبل الإسلام بصفته الدين المسيطر. وعلى الرغم من الجدل القائم بين الأخصائيين حول هذه المقاربة في ما يتعلق بالدين العالمي[٢١]، لا يمكن إنكار أو التغاضي عن فكرة أن المسيحية الغربية في تراجع لافت أمام إسلام منبعث. وتقوم مقاربة هنتنغتون الأساسية في هذا السياق على فكرة أن السيطرة الاقتصادية والسياسية الغربية تتجه نحو التقهقر، لتظهر نفسها «**كمجرد انعكاس غربي للاقتصاد العالمي الذي يعود إلى مائتي عام**»[٢٢].

ويفيد هنتنغتون، مهاجماً فوكوياما: «**لقد استطاع الغرب السيطرة على العالم ليس عن طريق تفوق أفكاره أو قيمه أو الدين الذي يعتمده وإنما بقدرته المتفوقة على تطبيق العنف المنظم. وغالباً ما يسهى الغرب عن هذا الواقع، على عكس غير الغربيين**»[٢٣]. وسيلي انحدار القوة الغربية تراجع للثقافة الغربية، في مقابل ازدهار سريع للحضارات غير الغربية. «**فالحداثة لا تعادل التغرُّب**»[٢٤].

وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تجعل من نفسها حضارات حديثة من دون أن تصبح غربية. وإلى ذلك التاريخ، لم تنجح سوى اليابان في هذا المسعى. وسوف تستمر الحضارات غير الغربية في محاولاتها لاكتساب الثروات والتكنولوجيا والمهارات والآلات والأسلحة التي تشكل جزءاً من الحداثة وأيضاً لموافقتها مع القيم والثقافة التقليدية. وسوف تزداد قوتها العسكرية والاقتصادية نسبةً إلى الغرب. ومن ثم سوف يجب على الغرب أن يكيف الحضارات الحديثة غير الغربية التي توشك أن تعادل قوتها القوة الغربية والتي تختلف مصالحها وقيمها بشكل واضح عن تلك الغربية»[٢٥].

ومن خلال أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، نستطيع، بوضوح، تبيّن صوابية توقعات هنتنغتون حول الصدام الحضاري والمواجهة العنيفة لا سيما مع الإسلام. وبحسب ستانلي كيرتز، «**فإنها اللحظة الحاسمة بالنسبة إلى صموئيل هنتنغتون**»[٢٦]. فإذا ما أعلن القادة الغربيون بمن فيهم رئيس الوزراء البريطاني بلير والرئيس الأميركي بوش بأن النزاع القائم حالياً موجّه فقط ضد جماعات متطرفة لا إلى العالم الإسلامي بأسره، فحينها سوف يعلن هنتنغتون اعتراضه معلّلاً بالآتي: «**لا يشكّل التطرف الإسلامي مشكلة أساسية بالنسبة إلى الغرب، وإنما هو الإسلام، الذي يعد حضارة مختلفة، يؤمن شعبها بتفوق ثقافته ويعاني من عقدة نقص في قوته. كما أن الخلاف بالنسبة إلى الإسلام ليس مع وكالة الاستخبارات الأميركية أو وزارة الدفاع الأميركي، وإنما مع الغرب الذي يعتبره الإسلام حضارة مختلفة أيضاً، شعبها مقتنع بكونية ثقافته**»[٢٧].

وفي مقابل نظرة فوكوياما المتفائلة حول نهاية كونية للتاريخ في ظل اعتناق عالمي «للحداثة» المتمثلة في المؤسسات الليبرالية للديمقراطية، والحرية الفردية، والاقتصاد الحر، تظهر توقعات هنتنغتون المتشائمة حول صدام بين الحضارات. ولا يتوقع هنتنغتون حياة مديدة للسيطرة الغربية في حين يرى فوكوياما انتصارها الكامل على المدى الطويل.

ويحذر هنتنغتون من الانعكاسات الخطيرة للغرور الغربي في حين أن فوكوياما كلُّه ثقة بأن جميع الحضارات سوف تعتمد في النهاية القيم الغربية. كما تعاني نظرية فوكوياما من الضجر الذي يطبع نهايتها في عبارة: «.. **ليس بانفجار وإنما بتذمر**»، وهي مسألة ليست بمنأى عن فكر غير الغربيين[٢٨]. كما يتوقع هنتنغتون نشوء صراعات عنيفة بين الثقافات بقيادة الدين، وهي شكل آخر من الحروب الدينية التي انتهت بحروب «ويستفاليا»، غير المنتهية على ما يبدو. «**فحيثما نلتفت، نرى العالم في نزاع مع نفسه**»[٢٩].

في حقيقة الأمر، هناك جدلية قائمة بين هاتين النظريتين، بحيث لا يمكن للواحدة أن تفند الأخرى. فهما تتطرقان للقضية نفسها وتؤولان إلى نتائج معاكسة تماماً؛ لذا لا يمكن دحض أي منهما. فمقاربة هنتنغتون تتسم بالاستثناءات والمرونة(٣٠). في حين أن نظرية فوكوياما يمكن أن تناشد، لا بل تناشد فعلياً، انتصاراً محتملاً للقيم الغربية(٣١) على المدى البعيد. ويرى ستانلي كيرتز: «أن كتابي «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات» **متممان لبعضهما البعض ومتنازعان في الوقت عينه؛ فهما مجتمعان، يرسمان أطر حيرتنا الحالية**»(٣٢).

أين تكمن حيرتنا الحالية؟ إن السؤال المطروح هو عمّا إذا كان بمقدورنا، نحن المجتمع الغربي، العيش جنباً إلى جنب مع الإسلام. من جهتنا، فإن المؤسسات الديمقراطية واحترام الحرية الفردية تتطلب أن نتقبل المسلمين بيننا، حتى لو كنا نخشاهم، فنحن بذلك نأوي بعضاً ممن قد يدمرنا. أما من جهة المسلمين، فالسؤال المطروح هو عما إذا كان يمكن للإسلام أن يتقبل أولئك الذين هم خارجون عن الأمة. وسوف تقوم الدراسات التي أجريت في هذا الصدد بالبحث في العلاقة بين الدين والعلمانية؛ أي كيف يمكن للدين المسيحي أن يتخذ كمؤسس للعلمانية الغربية، وتحت أية ظروف يمكن للإسلام أن يدعم علمانية لا تكون غريبة عنه وإنما متسامحة معه. وعلى الرغم من أن الجدل هنا يرتكز مبدئياً على العلاقات المختلفة بين الإسلام والمسيحية، وبين العلمانية، فقد دخل الدين اليهودي في هذا النزاع بعد أن قدّم التوضيحات التي تساعد على استيعاب الإسلام.

الإسلام، والمسيحية، واليهودية

إن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، المصادق عليه في كانون الأول ديسمبر ١٩٤٨، ينص على أننا جميعاً مخوّلون لمجموعة من الحقوق «**من دون أي تمييز على أساس العرق، اللون، اللغة، الدين، الرأي السياسي أو غيره، المنشأ الاجتماعي أو الوطني، الملكية، الولادة أو الحالات الأخرى**». ومن ضمن الحقوق المعلنة، هناك الحقوق السياسية والمدنية والحق بالحياة، والحرية، والأمان، والحماية ضد التعذيب والتوقيف التعسفي، والمساواة أمام القانون، وحرية إنشاء حركات، والمشاركة في الحكومة، والحرية الدينية، وحرية تأسيس الجمعيات والملكية الفردية. ولا يقدم الإعلان أي تبرير فلسفي لهذه الحقوق، وإنما هو ينص، بكل بساطة، على أن شعوب الأمم المتحدة قد أكّدت من جديد، في هذه الوثيقة، إيمانها بالحقوق الإنسانية الأساسية. وفي العام ١٩٥١، أشار جاك

ماريتين، إلى هذا الإجماع الدولي على أنه نوع من «الإيمان العلماني»[٣٣]. ولكن بعد بضع سنوات، طالبت الأديان الثلاثة كلها، والتي سنعرج عليها لاحقاً، بتلك الحقوق المتأصلة في تقاليدها[٣٤]. وعلينا، في ما بعد، تعيين أهمية تلك المطالب. ولكن لا بد، أولاً، من دراسة وجيزة للخلافات بين تلك الأديان وهي دراسة تحتل قسماً كبيراً من تلك التي طرحها هيغل حول هذه المسائل.

اليهودية

لنشوء الدين، يجب أن يكون هناك تفرقة بين الله والروح المتناهية كما يجب أن تنشأ علاقة ترابطية بينهما. وهكذا، فإن الربوبية لا تعد ديناً؛ لأنها لا تنم عن أية علاقة. أي نوع من الأديان هو اليهودية؟ اليهودية هي «ذلك الشاهد الصارم، والعنيد، وغير القابل للفساد، على عدم الوحدة بين الله والإنسان»[٣٥]. وهي على الرغم من ذلك تعد ديناً. وعلى الرغم من هذا الانفصال بين الله والإنسان، فهذا لا يعني غياب العلاقة، كما هو الحال في الربوبية، أو وجود عدم مبالاة. فطالما أن الروح التواقة إلى الله ممتثلة لإرادته، وطالما أن النبي مدرك بأن الله هو الإله وأنه عبده، فهناك وحدة إنسانية – إلهية. ولكن اليهودية هي الترياق لأولئك الذين ينكرون المحدودية الإنسانية أو اللامتناهية الإلهية. فالله، في اليهودية، ذو سلطان غير متناه وتماماً ذو قوة غير محدودة، إذن فإن ذلك السلطان الإلهي اللامتناهي ليس مجرد ضرورة فحسب، وإنما هو «قوة الحكمة» وما تنتجه من خير وعدالة[٣٦]. فالحياة الإنسانية تشارك في الهدف الإلهي اللامتناهي، علماً بأن الإلهية وحدها هي كل ما هو واقعي. كما تشارك تحديداً بصفتها شاهداً متناهياً على الانفصال الإنساني – الإلهي؛ ولذلك لا يمكن لشاهد كهذا أن يتخذ واقعه إلا في حياة عدد من الناس، وذلك للتأكيد بأن الوحدة المتوارية بين الإنسانية والإلهية، التي يبدو الخلاف عليها ذات أهمية بالغة، هي أبعد من اليهودية. غير أن أهمية الخلاف الحالي لا يمكن إلا أن تكون استثنائية. «ويعد «أيوب» رمزاً لجميع العلاقات التي يتعامل الله بها مع اليهود ويشكل حمايةً للروح المتناهية ونصراً لها. وهي الروح التي تعتمد الشك الذي يقوم بوضوح بإسقاط الشك. فأيوب، بحسب التوراة، عديم الخبرة، إذ يجد سوء حظه غير مبرر وبالتالي فهو غير راض لا سيما؛ لأنه لا ينظر إلى الضرورة كإيمان أعمى. عندها يصبح الوضع محط نقد حين يصبح على عدم الرضا والكآبة أن يخضعا للثقة العمياء والمطلقة. فيعد الخضوع نقطة الانتهاء؛ بحيث إن الثقة بالله ما هي إلا إدراك لذلك التناغم بين القوة والحكمة»[٣٧].

وهكذا فإن اليهود يدركون، حتى في متناقضاتهم، بأن الله هو خالق الجميع وأن الله خاص بفئة من الناس. فذلك هو التناقض الملفت اللامتناهي الصعوبة بل الأكثر صعوبة. فمن جهة، الله كوني، فهو رب السماوات والأرض ورب الإنسانية جمعاء، والحكمة المطلقة، والسلطان الكوني. ومن جهة أخرى، فإن غايته وعمله في العالم الروحاني محدودان جداً؛ بحيث يقتصران على تلك العائلة وذلك الشعب فحسب[٣٨]. و«**لكن ذلك الشعب هو من يعبده لذا فهو الله الخاص بذلك الشعب وهو ربه بحق**»[٣٩]. ما من شيء هنا يدعو إلى التباهي أو المفاخرة بتلك المتعة المقتصرة على ذلك الشعب وعلاقته بالله الكلي العظمة[٤٠]. وليس هنالك من إلزام لاجتذاب الآخرين لهذا الدين كما أنه ليس هناك من روح للهداية لدى الشعب اليهودي. فكلا الشعبين، اليهودي والمسيحي، مدعوان إلى تمجيد اسمه. ولكن هذا الأمر يظل أمنية لا قيمة لها، وليس هدفاً كما هو الحال لاحقاً في الإسلام. كما لا يولد أي تعصب، كما في الإسلام. وفي كتابه «محاضرات في فلسفة الدين»، يقول هيغل: «**إن التعصب قائم بين اليهود ولكن فقط في حال تعرضت ممتلكاتهم ودينهم للهجوم**»[٤١].

الإسلام

ما هو الإسلام؟ ذلك هو الموضوع الذي تدور حوله إحدى مقالات آلان بوزانسون[٤٢] الحالية؛ فهو يرى، في ما يخص الإسلام، بأن الكنائس الأوروبية ميّالة إلى «مسكونية متسامحة». وبالتالي، فنحن نتشارك، على الأقل، تلك العناصر مجتمعة التي تقول بأن الإسلام دين توحيدي قائم، كما المسيحية واليهودية، على الوحي الإلهي، الذي تنزّل في القرآن. وهو كتاب يجب التمسّك بحرفيته كما هو الحال في التوراة والعهد الجديد. كما ويدّعي الإسلام التحدر من سلالة مشتركة معنا؛ أي من سلالة إبراهيم أبي التوراة.

بالإضافة إلى ذلك، قد يتنبّه المسيحيون إلى أنه قد تمّ في القرآن ذكر عيسى ومريم مانحاً إياهما مرتبة سامية. فهل ينظر المسيحيون واليهود إلى الإسلام، كما إلى المسيحية واليهودية، على أنه دين وحي؟ ففي اللاهوت المسيحي التقليدي، يمتاز دين الوحي عن الدين الطبيعي بأن ذلك الأخير أكثر فطرية وشمولية من الأول. فأولئك الذين يعتنقون الدين الطبيعي خاضعون للقانون الفطري وللأخلاقية الكونية المعبّر عنها بكل بساطة على النحو التالي: «قم بالخير وابتعد عن الشر». أما في التلمودية، فيقع اليهود ضمن ميثاق بين الله ونوح، الذي لم يتخل عن أولئك الذين نجوا من الطوفان، أي الإنسانية جمعاء (سفر

التكوين، الفصل التاسع). وهم قد يؤمنون نوعاً ما بحقيقة الله وذلك حتى في إطار دين وثني. ومع ذلك، فقد اختار الله من ضمن هذه الإنسانية جمعاء، في شخص إبراهيم، شعباً خاصاً عقد معه ميثاقاً آخر. فذلك الشعب المختار خاضع لقانون موسى ويعترف بالله على أنه الإله الواحد الأبدي، وصاحب السلطان، والإرادة المطلقة، والمكتفي ذاتياً، والذي هو على ما عليه لأنه هو الله. وأخيراً، أقام الله ميثاقاً جديداً من خلال ابنه يسوع الذي تجسد فيه وهو الوحي التام لله، وهو ميثاق سوف يمتد في النهاية إلى البشرية بأكملها[٤٣]، وهكذا فإن كلاً من اليهودية والمسيحية دين وحي.

ولكن أي نوع من الأديان هو الإسلام؟ يظهر الإسلام الله على أنه الواحد الأبدي والجبار والرحيم والعليم بكل شيء. ويشير إلى أنه تلقى وحياً متناغماً مع الديانتين، المسيحية واليهودية؛ وذلك لأن الإسلام ينحدر من السلالة نفسها؛ أي من إبراهيم. كما يعترف بآدم ونوح وموسى وداوود وعيسى كرسل حقيقيين (ولكن محمداً فقط هو رسول الله). كما أنه قد جاء في القرآن ذكر عيسى ومريم مانحاً إياهما مرتبةً سامية. ويشير بوزانسون بشكل مقنع إلى أن المسيحية واليهودية لا يمكنهما النظر إلى الإسلام على أنه دين متمم لهما. فأبراهام الأول ليس هو نفسه إبراهيم المذكور في القرآن. كما أن موسى عندهما غير موسى[٤٤] الذي ذكر في القرآن. كما يظهر يسوع، الذي ورد كعيسى في القرآن، في غير زمان ومكان، لا يمت لإسرائيل بأية صلة. وماري (أي مريم) هي شقيقة هارون. فقد سلم عيسى الرسالة نفسها التي سلمها قبله الأنبياء السابقون عن أحدية الله (ومؤكداً ليس الثالوث الأقدس). فهو ليس ابن الله ولا وسيطاً روحياً؛ إذ لا يوجد في الإسلام ما يسمى بالوساطة. فإن عدم معرفة محمد بمبادئ الدين المسيحي يمكن أن يفسر بكل بساطة بأنه لم يكن هناك من ترجمة للعهدين متوفرة له[٤٥]. لذا فقد اعتمد كلياً على ما سمعه من روايات تتضمن بوضوح مبادئ الأبوكريفا الوهمية وإضافات هرطقية.[٤٦]

لقد نفخت رسالة الإسلام في آدم ثم تكررت الدعوة إلى هذا الدين من قبل الأنبياء المتتابعين إلى شعوب معينة. وفي نهاية الأمر، مليت إلى محمد النبي والرسول؛ لأن الناس كانوا قد نسوها. فهو الوحيد الذي تسلم هذه المهمة من أجل البشرية بأجمعها. عندئذ أصبحت الكتب المقدسة التابعة للرسل السابقين، بحسب الادعاءات، زائفة، والكتابات متلاعباً بها والمعنى محرفاً. وهكذا، فإن التوراة الفعلي؛ أي الإنجيل المصدق، موجود فقط

في القرآن. كما أن المسلمين هم الأتباع الحقيقيون للمسيح[٤٧]. إذاً فكل ما هو صحيح نجده في القرآن، وإن لم يكن موجوداً فإذاً هو خاطئ. من أجل ذلك، يبين هيغل هذا الأمر كتبرير للمسلمين بتدميرهم مكتبة الإسكندرية الشهيرة، فقد نقل عن عمر أنه قال: «**إما أن تحتوي تلك الكتب على ما جاء في القرآن أو غير ذلك: وفي كلتا الحالتين، إنها غير ضرورية**»[٤٨].

وبما أن القرآن لم يكن مكملاً أو متناغماً مع كتابات اليهود والمسيحيين، لم يكن بالمقدور اعتباره كوحي حقيقي من الله. هل يعد الإسلام، إذاً، نسخة ابتداعية عن كتاب اليهود أو عن كتاب المسيحيين أم يجب اعتباره عوضاً عن ذلك، ديناً طبيعياً؟ إذ إنه يتشارك والأديان الطبيعية الإدراك نفسه، وهو أن الله جلي بحيث إنه على الإنسان بأن يكون ضالاً أو مجنوناً لئلاً يؤمن بوجود الله أو الآلهة: فالمرء لا يجب أن يمتلك الإيمان أو الوحي ليعترف بالألوهية وإنما عليه فقط أن يعترف بأن الإله واحد. إضافة إلى ذلك، فإن الآداب الإسلامية لديها ما هو مشترك أكثر مع الآداب الوثنية. ويقول بوزانسون: «**للمسلم روح تنتهز كل فرصة سانحة، وهي قناعة دنيوية لطالما أبهرت المسيحيين الذين كانوا يرون في هذا الدين انعكاساً مظلماً عن العالم الكلاسيكي القديم. ولا شيء يوازي العقيدة الإسلامية حول الخطيئة الأصلية**»[٤٩]. علاوة على ذلك، فإن الحياة الأبدية كما يصفها القرآن ليست مشاركة في الحياة الإلهية، وإنما هي عودة إلى جنة عدن. وقد جاء في القرآن: **﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾**. فتلك هي أكثر الأمور شيوعاً التي يوعد بها الشهداء.

ومن ضمن الأسماء التسعة وتسعين التابعة لله، لا نجد اسم «الأب» أو أي اسم يطلق على الإنسان، إذ إن الله في الإسلام غير محدد تماماً. ويقول هيغل: «**إن الله هو نفسه غير المعلن كلياً، وأعماله جميعها مجردة، كما أن الأحداث التي يخلقها بذلك هي غير متوقعة... وبذلك، فإن الأعمال التي يقوم بها الله متمثلة بكونها مجردة من المنطق.**»[٥٠] ففي هذا العالم الذي نعيشه، لا شيء ثابت، وما من شيء حسي يأتي بالصدفة أو عبر الطبيعة. فطبيعة هذا الجسم أو ذاك لا تستلزم لحدوثها صدفة. بل إن الله يخلق الحوادث بشكل فوري من دون وجود مسبب. فالله وحده جوهري أما باقي الأشياء فلا ضرورة لوجودها، فهي

تتغير تماماً في كل لحظة. فعلى سبيل المثال، نحن لا نقوم بصباغة الثوب باللون الأحمر حين نؤمن بأننا صبغناه بذلك اللون وإنما في تلك اللحظة، قد جعل الله اللون الأحمر المرتبط بهذا الثوب وأعاد، باستمرار، خلق اللون الأحمر لحظة بلحظة(٥١). كما أن المعرفة العلمية هي أيضاً نوع من الحوادث؛ إذ إننا لا نعرف اليوم ما كنا نعرفه سابقاً. ويقول هيغل: «**إن ما نستطيع تمييزه هنا هو الانحلال التام للتوافق المتبادل، ولكل شيء يتعلق بالعقلانية. فقد قام العرب بتنمية العلوم والفلسفة بهذه الطريقة حيث كل شيء لديهم يتم بلا سبب ظاهر**»(٥٢).

وكذلك القرآن نفسه، فهو غير مترابط فكرياً. فما من عقيدة وراء عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وإنما من شأن القرآن إخبار الإنسان بما يجب أن يفعله وما يجب أن يتجنبه، كما أنه يصور له نعيم الجنة وعذاب جهنم بشكل حي وحسي، وهو، تارةً، يحاكي الإنسان بنبرة جدلية، وتارة أخرى، بنبرة وحيانية. كما أنه أيضاً يستخدم الأسلوب الحماسي الحاكم، لا سيما في الأجزاء الأولى. ما يترك عند الغرب انطباعاً بالارتباك والتكرار، وأحياناً، بعدم التناسق. ويمكن تغيير ترتيب السور القرآنية؛ إذ إنها تنتقل من موضوع إلى آخر من دون وجود محطات انتقالية واضحة. وعندما نركز اهتمامنا على الطريقة التي وضع فيها، عندئذ تصبح بنيته (أو النقص في بنيته) أكثر وضوحاً وفهماً بالنسبة إلينا. فمحمد يدعي أنه تلقاه تدريجياً طوال فترة من الوقت، وقام هو بدوره بإعادة نقل مبادئه إلى الكتبة. وقام في بعض الأحيان بإدخال عناصر جديدة وبإلغاء أخرى، ومن المسلّم أن الله قد قدر له أن ينسى بعض الإيحاءات كما ورد في (سورة الأعلى، الآية ٧). ولكن القرآن هو أيضاً ضرب من الشعر ويصفه هيغل: «**بأنه واضح ودقيق بحيث يعيد إلى ذاكرتنا الشعر المنشد في عهد الفرسان الأسبان**»؛ لذا فهو يجب أن يرتل ترتيلاً. فقد كُتب القرآن بلغة يدعوها ألبرت حوراني «اللغة الشعرية»(٥٣) وهي لغة مشتركة نشأت عن اللغات المتفرعة من العربية.

فالإسلام كما اليهودية والمسيحية، دين يقين؛ إذ إنه يحوي نصوصاً مقدسة كوحي من الله إلى المؤمن وأنه أصبح، بعد فترة من الوقت، مذهباً يحدد من هو المؤمن الحقيقي، وهكذا فهو دين خارجي. فكل شيء، بحسب هيغل، يجب أن يصل إلينا أولاً من الخارج. فالقوانين الدينية تتضمن شيئاً من اليقين، فهي قد سنت لنا من قبل المشرعين. كما أنها تلزمنا بالخضوع لها فقط لأنها قوانين الأرض. ولكن عندما فكرنا بوضع القانون، وعندما رأينا

بأنه من المنطقي ألا تمر الجريمة من دون عقاب، عندها أصبحنا ندرك بأن القانون يقيني وهو ملزم لنا منطقياً. فالقواعد والقوانين التي نفرضها على أولادنا، بأنه عليهم قول الحقيقة، وأن يكونوا مهذبين، وأن ينظفوا أسنانهم بالفرشاة، أصبحت مع الوقت، قوانينهم الخاصة ولم تعد مفروضة من الخارج. لذا، لا يجب الانتقاص من منطقية أو عقلانية الدين السماوي ومبادئه ومفاهيمه الأخلاقية وذلك، ببساطة، لأنه وجد أولاً في الكتب المقدسة والمذاهب.

أما إذا كان يعد الدين، دين يقين فقط بسبب طبيعته، فعندها تسقط العقلانية عنه. فالعناصر المكونة للدين اليهودي تبدو يقينية لا محالة. وبحسب هيغل، فإن أكثر الأنظمة تفاهة، هي تلك المتعلقة مثلاً بتسوية المعبد بتقديم التضحيات وتنظيم الاحتفالات، فهي قد أنزلت بأمر إلهي: «يأمر الله...». كما أنها متناغمة كلياً مع قانون موسى العقلاني. ولكن التوراة يقدم فقرات عن المنطقية العليا عن سبب الخلق، ووصف الله نفسه «أنا الله». فالقرآن، بمعزل عن الفرضية الأساسية القائم عليها بأن الله واحد وبذلك هو الروح القدس، يظهر الإسلام كدين يقين. فالله قادر على تحويل الليل إلى نهار وإبطال ما كان قد أنجز، إذ تتجلى قدراته وأعماله بشكل غير متوقع ومن دون أي تفسير.

الدين المسيحي

تعد المسيحية دين يقين بقدر ما هو مرسل إلى الإنسانية من الخارج عبر التاريخ. فبالنسبة للمسيحي، لقد نشأ الدين المسيحي، مع الوقت، من الحاجات الروحية الكبيرة للبشرية، ومذ ذاك ظهر جلياً عندما ولد المسيح. ولكن المسيح نفسه، الذي أوحى بطبيعة الله إلى البشرية، ينتمي، بصفة ابن الله، إلى طبيعة الله، ويعتقد المسيحيون بأن ذلك لم يتم بقوة المعجزات أو بإملاء من أحد الملائكة وإنما «بشهادة الروح القدس» المتساوية مع روحهم.

فالمسيح ينادي بوحدة الإنسان والإله، وهو نفسه رمز الوحدة. كما يؤمن المسيحيون ويشهدون بتلك الوحدة. وهكذا فإن مضمون الدين المسيحي، على الرغم من أنه يقيني، يتطلب من أجل الإيمان به شيئاً من الإدراك الفكري. فهو ليس دين وحي فحسب، وإنما دين إلهام. وهكذا، نشأت عن هذا الدين في القرون الأولى الحاجة إلى الإيمان الفكري، وهي حاجة لم يكن بالإمكان إشباعها إلا بعد فترة طويلة من الزمن، كون خلالها هذا الدين مؤسسات أتباعه وتاريخهم مما ولد فلسفة جديدة تعادل قيام الواجبات.

ويعتقد بأن رسائل القديس بولس هي العناصر الأولى لذلك الإيمان الفكري. فإن حلّه للخلافات القائمة في المجتمعات المسيحية القديمة عائد إلى سلطة عليا لا تدخل في إطار يقيني تعصبي. وجاءت اللاهوتية التابعة لآباء الكنيسة، على الرغم من أن تلقينها ترافق ببدع شوهت وحدة الإيمان لدى المسيحيين، كتفسير واكتشاف الكنيسة لمعتقداتها(٥٤). ففي تلك الروح، اكتشفت الكنيسة مبدأ الثالوث الأقدس(٥٥).

ففي سفر الرؤيا الذي يعتبر أن المسيح هو ابن الله وأن «الابن والأب واحد»، المعروف عند المسيحيين بشهادة الروح القدس، فإن الروح هنا التي أرسلها الأب فقط عند موت يسوع، قد أعطت الشكل الناقص لمبدأ الثالوث الأقدس الذي يجب على آباء الكنيسة أن يجعلوه قابلاً لأن يدرك بالعقل؛ لأن الروح حاضرة جلياً في مجتمع أتباع المسيح وكما أنها ظاهرة في روح الإنسان. لذلك، يرى المسيحيون أن هذا الرجل حقاً هو ابن الله وأن هذا الرجل يسوع هو وحي من الله وبذلك فهو إله بذاته.

فقد عرفوا من خلال الروح القدس الألوهية في المجتمع المؤمن على أنها الحركة الذاتية داخل الله نفسه. وإن كانوا قد أعطوا أسماءً مجازية لمراحل تطور تلك الحركة الذاتية وذلك بالأب والابن والروح القدس، فعلى علماء اللاهوت أن يقدموا تفسيراً دقيقاً للمعتقد الأرثوذكسي الذي يقول: إن الله ولد من نفسه إلهً مقابلاً له، يعادله بشتى الأشكال ويعرف ذاته من خلاله، ويحب الآخر في نفسه ونفسه في الآخر؛ لذلك فإن لله حياة ثالوثية داخلية منبعثة من ذاته كما أنه متصالح مع ما ولده منها.

فالله ليس كائناً فحسب وإنما هو كائن حي، وواقعي، وذو سلطة ذاتية وبالتالي فهو حر. فلولا تجسد الله الذاتي كثالوث من العلاقات الإلهية ومن ثم الإنسانية في وحدة غير متناهية أرسلت إلى المؤمن في شهادة الروح الباطنية، لما استطاع معرفة تلك الحياة.

وعندما يخلق الله عالماً، فإن هذا الأخير هو بحدّ ذاته نابع من حرية إرادة الله ومن تجسده، ومن خلاله يعرف الله نفسه. وعندما خلق الله الإنسان على صورته من الطين في ذلك العالم، أصبحت تلك الحياة الثالوثية بالنسبة إلى المؤمن حياته أيضاً.

الإسلام والنصرانية: دين حول العالم

وحيث إن اهتمامنا هنا يرتكز على معرفة كيف يمكن لنا نحن في الغرب، وبالتحديد الحضارة المسيحية بجوهرها وروحها على الأقل، العيش بسلام مع المسلمين، فقد انتقلنا من الفوارق المتواجدة بين الأديان إلى حين ظهورها في العالم.

والجدير بالذكر، أنه بعد قيام ثورة باركوخبا وطرد اليهود من فلسطين في العام ١٣٥ بعد الميلاد، عاش الشتات اليهودي في القرون اللاحقة، بحسب القانون الذي نص عليه أولاً صموئيل ألا وهو: «**قانون الأرض هو القانون الحاكم**». وقد كان صموئيل الحاكم في السلطة الحبرية في مدينة بابل حيث تشتت العديد من اليهود بعد نفيهم.

وكان اليهود يعدون أنفسهم ضيوفاً في أي بلد تقيم فيه جاليتهم، كما كان عليهم التقيد بقوانين هذا البلد. وإلى حين عودتهم إلى أرض أجدادهم، الذي هو أملهم المنتظر، لن يكون هناك أي طابع حضاري للشعب اليهودي.

لننتقل الآن إلى المسلمين والمسيحيين. «**خلال السنوات الألف الأولى تقريبا للصراع القائم بين هذين النظامين العالميين، كانت الهيمنة دوماً للمسلمين**»[٥٦]. أما خلال القرون الأخيرة، كان المسلمون غير مبالين البتة بالـ«ملحدين» باعتبارهم شعباً همجياً غير متحضر. وتلك كانت هي القضية الأكبر. فبينما كانت القبائل البربرية تقوم بعمليات السرقة والنهب عبر القارة الأوروبية؛ كان الإسلام، حينها، القوة الاقتصادية والعسكرية الأكبر في العالم؛ إذ تمكن جيشه، خارج شبه الجزيرة العربية، من السيطرة على سوريا ومصر وفلسطين وإفريقيا الشمالية في القرن السابع، أي في القرن الأول الذي نشأ فيه الإسلام. ومن ثم سيطروا على البرتغال وأسبانيا في القرن الثامن وغزوا فرنسا حيث صدهم أخيراً تشارلز مارتل في العام ٧٣٢ وأعادهم في معركة «بلاط الشهداء». ولكنهم واصلوا مسيرتهم خلال القرن التاسع وغزوا سيسيليا كما اجتاحوا شبه الجزيرة الإيطالية بعد أن نهبوا مدينتي أوستيا وروما. وقد عمد الدين الإسلامي إلى تطوير الفنون والعلوم، ومتابعة دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية. كما أنه أنشأ شبكة اتصالات وسوقاً تجارية عبر أوروبا وآسيا وأفريقيا. وفي الوقت الذي ظهرت فيه المسيحية تدريجياً كقوة عسكرية منافسة للإسلام، كان المسلمون يعتبرون أن الحضارة والثقافة منصهرتان في الدين الإسلامي نفسه، لذلك فإن تفوقهم مرتبط مباشرةً بدينهم. وقد أفاد دانييل بايبز في إحدى كتاباته: «**أن الدين الإسلامي هو دين الفوز في الدرجة الأولى، إنه دين ظافر. ففي العام ١٠٠٠، كان الإسلام يحتل القمة بغض النظر عن النجاحات التي كان يحرزها على المستوى العالمي، إن كان في مجال الصحة، الأدب، الثقافة أم السلطة. وقد أصبحت هذه الجملة ذات طابع عرفي ومفروغاً من أمره: أن تكون مسلماً يعني أن تكون من المفضلين عند الله تعالى، أي من الفائزين**»[٥٧].

١- فوز الإسلام

تمكن الإسلام من تحقيق ذلك نتيجة العديد من العوامل الخارجية، ألا وهي ضعف منطقة الشرق الأوسط بسبب الغزوات البربرية، وفشل القطاع الزراعي، وانكماش الأسواق في المدن بالإضافة إلى ضعف الإمبراطوريتين البيزنطية والإيرانية نتيجة انتشار الأوبئة والحروب الطويلة، وعدم اكتراث أهل المدينة الذين يعيشون تحت حكم هاتين الإمبراطوريتين بمن يحكمهم طالما أنهم يتمتعون بقدر من الأمن، والسلام والضرائب المعقولة.

أدت الحركة المحمدية الجديدة التي ظهرت في مكة أولا إلى زرع الشك بين الناس، حتى بين أبناء قبيلته نفسها. وقد حملته الضغوط والاضطهاد إلى ترك مكة للانتقال إلى يثرب، التي سميت لاحقا بـ«المدينة» حيث رحب به وبأتباعه، ومن هنا كانت هجرة الرسول. وتعتبر تلك السنة التي هاجر فيها الرسول (٦٢٢ ميلادية)، في الروزنامة الإسلامية، السنة الأولى في الإسلام. وقد أصبح محمد قائداً على المدينة متمتعاً بقوة سياسية وعسكرية تدعم سلطته الروحية. وبعد فترة قصيرة من الزمن، وقعت هذه المدينة الإسلامية في صراع مع مكة التي عاد إليها الرسول بعد سنوات ثمانٍ. وفي هذه الأرض المشركة، أسس محمد دولة إسلامية تحل محل دولة الآلهة المتعددة التي كان قد أدانها منذ زمن طويل(٥٨). وأصبحت «المدينة»، منشأ الأمة، دولةً تحولت في ما بعد إلى قاعدة إمبراطورية.

ولاحقاً، كان من المحتم أن تكون طبيعة الإسلام أكثر من مجرد دين، بحيث إن أي فصل للدين عن الدولة لن يكون محبذاً؛ إذ جاء في القرآن ﴿يا أيُّها الّذين آمنُوا أطيعُوا اللّه وأطيعُوا الرّسُول وأُولِي الأمرِ منكُمْ﴾. وبعد موت الرسول، أثارت مسألة خلافته الجدل بين المسلمين ما أدى إلى انقسام في الدين الإسلامي نفسه. وقد تشكل المذهب السني الذي يقول: إن النبوة قد انتهت بموت الرسول وإن المطلوب، آنذاك، هو خليفة من العامة تنتخبه الأمة لكي يحكم وفقاً لمبادئ الإسلام الصارمة.

وفي المقابل، تشكل المذهب الشيعي الذي يرى أن هناك متابعة لعمل النبوة وذلك عبر الأئمة وهكذا نجد، في داخل الانقسام نفسه، نزاعاً بين الدين والدنيوية.

وقد تلقت الأجيال اللاحقة وصايا وتعاليم النبي شفهياً إلى أن تمت كتابتها. ويحترم

معظم المسلمين تلك التعاليم والأمثلة باعتبارها امتداداً للقرآن، إذ تشكل معه دعائم الشريعة الإسلامية التي قام المفتون بتفسيرها ودراستها واضعين بذلك الأحكام والقوانين التي سميت بالفتاوى.

وتمتد هذه الأحكام على جميع جوانب الحياة التي يعيشها المسلم: العائلية، والاقتصادية، والسياسية والاجتماعية والدينية على حد سواء[٥٩]. وبالتالي، تعتبر كل القوانين الإسلامية، قوانين إلهية مشرّعة من الله[٦٠]. إن هذه العقيدة المطلقة في تعاليم وأعمال النبي قد فرضت نفسها على الآخرين حتى خلال فترة خلافته، إذ أرسل حملات عسكرية حتى الحدود البيزنطية وبعثات إلى حكام ذلك العصر يدعوهم من خلالها إلى الإسلام. وبعد موته، أعدّ خليفته، أبو بكر، جيشاً منظماً، مولداً حماسة لدى المسلمين، وصفها البعض بالتعصب[٦١]، والتي كانت قد اشتعلت نتيجة اتقاد قناعاتهم وتطلعهم لامتلاك الأرض والثروة. كما ساهمت في إعادة بناء الشرق الأدنى، إذ انتقل مركز الحياة السياسية من الهلال الخصيب الغني والمكتظ بالسكان إلى منطقة صغيرة قائمة في الجهة الغربية لشبه الجزيرة العربية ألا وهي «المدينة».

وبعد قرنين من موت الرسول، تكونت مدرستان مختلفتان للدين الإسلامي، «المعتزلة» وهم أول من طبق، في القرن الثامن، الفلسفة اليونانية على الدين الإسلامي من المسلمين و«الأشاعرة» أتباع الإمام الأشعري، الذين يمكن تسميتهم «بالاسميين المسلمين»[٦٢]. في القرن العاشر.

ومع أن المعتزلة كانوا مسلّمين بوحدة الله، إلا أنهم كانوا يعتبرون أن القرآن لا يمكن أن يكون أزلياً بل هو مخلوق وخالفهم الأشاعرة في ذلك. لذلك، كان يوجد مكان لعالم من الحقيقة والأخلاقية غير منبعث من الدين، ولعالم من العقلانية والدنيوية غير مأخوذ ببساطة من القرآن.

ولأكثر من قرن، أقر الخليفة المأمون، في العام ٨٢٧، باعتماد تعاليم القرآن كعقيدة. ثم جاء، في العام ٩٣٢، الأشعري وهو فقيه مشرّع، تصدى للمعتزلة وأطاح بقوة مبدأ العقلانية لديهم، معتمداً مبادئ المذهب الذري الذي يعود إلى معتقد قديم يقول بأن القدرة الكلية لله غير مرتبطة بالأخلاقية والسببية. ولذا لا يمكن اكتشاف الأخلاقية منطقياً. وبالتالي، فما من عمل صالح أو جيد ما لم يصدر عن الشريعة الدينية موقف محدد تجاهه. فذلك هو الموقف القويم للأغلبية الكبيرة المسلمة، حتى في عصرنا الحالي، ولا سيما السنّة[٦٣].

وقد شهدت السلطة الإسلامية تلاشياً تدريجياً للحكومة المتكاملة، ولكن ما من شيء كان بوسعه الحد من نموها. ففي القرن الثامن، كانت نسبة المسلمين في إيران والعراق وسوريا ومصر وتونس وأسبانيا أقل من ١٠ في المائة، ثم ما لبثت أن ارتفعت هذه النسبة خلال القرن العاشر لتحتل قسماً كبيراً من السكان. ويجدر القول بأن من بين الأسباب التي ساعدت على هذا التقدم هو ظهور الإسلام حينها بطريقة واضحة جداً، بالإضافة إلى التباين العميق بين المسلمين وغير المسلمين، إذ كانوا يملكون نظاماً متقناً من الشعائر الدينية والعقائد والقوانين. ومن أجل الحفاظ على صورة الإسلام كدين مطلق، كان على غير المسلمين تقبل العيش في المحيط المسلم. وباعتبارهم ذوي منزلة متدنية، كان على غير المسلمين دفع جزية من أجل العيش تحت سقف وحماية دولة إسلامية، وكان عليهم ارتداء ملابس معينة بألوان محددة. كما كانوا يمنعون من حيازة السلاح وركوب الخيل إذ كانت الأغلبية تتنقل على الحمير أو البغال. ناهيك عن أنه لم يكن يحق لهم الزواج من نساء مسلمات، كما أن شهادتهم ضد المسلمين لم يكن يؤخذ بها في المحاكم الإسلامية. علاوةً على ذلك، لم تكن دور العبادة لديهم متفاخرة ولم يكن يحق لهم بناء دور جديدة، كما أنهم كانوا محرومين من ارتقاء المناصب[٦٤]؛ لذلك لم يكن هناك من دافع بسيط يحملهم على التحول إلى الإسلام[٦٥]. وفي موازاة ذلك، كانوا يعاملون بالمثل مع إخوانهم المسلمين ما إن يتحولوا عن دينهم ويعتنقوا الإسلام.

ونذكر بأن الفتوحات قد ساعدت أيضاً على نمو الإسلام. فأصبحت العربية لغة عالمية، بعد أن انتقلت عبر التعاليم الدينية، كونها لغة القرآن التي تعتبر نموذجاً للغة العربية الفصحى. ففي القرنين الثامن والتاسع، تم وضع علوم اللغة كالصناعة المعجمية والقواعد اللغوية والنظريات الأدبية، ودرسها من قبل أشخاص تعتبر العربية لغتهم الثانية.

وقد قام العلماء بتجميع الشعر العربي القديم إلى حين ازدهاره في القرن التاسع والقرون اللاحقة. كما ظهر، لاحقاً، نوع جديد من الأدب الفارسي الرفيع والمكتوب بالأحرف العربية، ومعجم غني بالمفردات العربية. وقد أعيد إحياء الملحمة الشعرية حول تاريخ إيران في فترة ما قبل الإسلام وتمت كتابتها باللغة الفارسية الجديدة. وعموما، لم تكن البلدان الإسلامية مهتمة بماضيها قبل الإسلام.

وفي القرن العاشر، تم الاعتراف «بالعالم الإسلامي»[٦٦]. وها نحن نقف اليوم بخشية أمام أبنيتها العظيمة الممتدة من قرطبة إلى العراق، حيث نجد مساجد محاطة بأبنية أخرى

كدور العدل والمستشفيات والفنادق الخاصة بالمسافرين والحجاج، ومقامات كالكعبة في مكة المكرمة، وقبة الصخرة في القدس، وضريح النبي إبراهيم في حبرون وضريح النبي محمد في المدينة. وأيضا نجد القصور العظيمة كقصر الحمراء في غرناطة الذي يعد تحفة فنية بنيت في القرن الرابع عشر. كما كانت جدران الأبنية مزخرفة؛ إذ كان بعضها مزيناً بعدد كبير من الرسومات الهندسية المرتبطة ببعضها البعض، وبعضها الآخر مزيناً بالنباتات والأزهار المصورة بأسلوب رائع[٦٧]. وقد كان المسلمون يعيرون أهمية كبيرة لفن التخطيط، ولا سيما نسخ آيات قرآنية، عرف العالم الله من خلالها[٦٨].

وفي القرون التالية، شكلت المدن الإسلامية العظيمة المدن الأكبر في الغرب؛ إذ كان يوجد في كل من مصر وبغداد ربع مليون نسمة أي ما يعادل مرتين أو أكثر عدد السكان المتواجدين في أية منطقة في غرب أوروبا. ومن ثم تأتي مناطق قرطبة وغرناطة وسيفيل في الأندلس، وفاس ومراكش في المغرب، ودمشق وحلب في سوريا، والموصل والبصرة في العراق، التي تبلغ مساحة كل واحدة منها مساحة مدن مثل: باريس وفلورنسا واليونان وروما.

إضافةً إلى هذا النجاح الذي حققه الإسلام على صعيد العالم والمرتبط به، يجب الاعتراف بما أنجزته هذه العقيدة لأتباعها وللعالم بأسره على المستويين الروحي والديني، بحيث أنقذتهم من براثن الشرك والوثنية في شبه الجزيرة العربية. وبعد هجرته إلى المدينة، رفض النبي محمد دعوة اليهود الوحيدة القائلة بأنهم الشعب الوحيد المتصل بالله الواحد[٦٩]، مبيناً لهم، في المقابل، بأن الله هو الإله الواحد للبشرية جمعاء. وقد نشر الإسلام عقيدة التوحيد والحضارة الغنية الصادرة عنه، إلى عدد كبير من البلدان والشعوب كالهندوس، والبوذيين، والزردشتيين، والمانيشيين. ومن ناحية أخرى أكثر أهمية، فقد قام المسلمون بنشر دينهم وحضارتهم في العالم بأسره بدلاً من العبادات الأخرى التي كانت تعتنقها بعض الشعوب.

٢- النظام الإسلامي الاجتماعي

في الواقع، يقال: إن الإسلام دين ينادي بالمساواة بين البشر. وهو يرفض علناً جميع الامتيازات القائمة على المنشأ، والعرق، والثراء، والطبقة الاجتماعية. وقد جاء في سورة الحجرات: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خلقْناكُم مِّن ذكرٍ وأُنثى وجعلْناكُمْ شُعُوبًا وقبائل لتعارفُوا إِنّ

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. وبذلك يكون الإسلام قد ساوى بين مواليه، ولكن ما لبث أن بيّن بعض المؤرخين الغربيين(٧٠) عدم المساواة في ثلاث حالات جائزة في الإسلام وكذلك في الإمبراطوريات الإسلامية، ألا وهي عدم المساواة بين العبد وسيده، وبين الرجل والمرأة، وبين المسلم وغير المسلم. وقد تم ضبط تلك العلاقات في القانون الإسلامي، كما تم حصر تطبيقها. وبناءً على ما قيل سابقاً حول عدم المساواة بين المسلم وغير المسلم في العالم الإسلامي، فقد استطاع المسلمون الذين كان يتزايد عددهم في المناطق التي سيطروا عليها، أن يعيشوا منفصلين عن غير المسلمين.

إن غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في تسامح ديني مع المسلمين هم، على وجه الخصوص، من اليهود والمسيحيين، أو ما يعرف لدى الإسلام بأهل الكتاب الذين يعتمدون، في دينهم، على مبادئ الوحي الإلهي ولو أنها، في بعض الأحيان، كانت غير واضحة ومغلوطة. أما القسم الآخر من غير المسلمين فكانوا على الأرجح من العبيد. وقد كانت معاملة اليهود والمسلمين في العالم المسيحي، على العموم، أقل تسامحاً منها في الدول الإسلامية.

وكما هو معروف، فإن الرق كان من النظم الاجتماعية المتعارف عليها عالمياً، ليس منذ زمن بعيد. وكانت الشرائع تقر مسبقاً وتحتم، خلال غزو البلدان الأجنبية، قتل جيوش الأعداء أو استخدامهم كعبيد من قبل جيوش المسلمين. وكان يجبر بعض العبيد على الالتحاق بجيش المسلمين نفسه، في حين يستخدم البعض الآخر للعمل في مجال الزراعة أو خدمة المنازل. كما كان يتم بيع وشراء العبيد، لا سيما الجواري اللواتي كن بمعظمهن من العرق الأبيض، أو خادمات المنازل اللواتي كن بمعظمهن من العرق الأسود. وكان على الأسياد معاملة عبيدهم بعدل ولطف، في حين يكافئ القرآن كل من يعتق عبداً. ولم يكن يحق للمسلم استعباد أخيه المسلم، كما لم يكن يحق له، طبيعياً، استعباد أناس من أهل الكتاب. وفي أسوأ الحالات، كانت معاملة المسلمين لعبيدهم أقل قساوةً من تلك التي كانت تعتمدها البلدان المسيحية، خلال القرون الوسطى؛ وذلك لأنها كانت قائمة على قانون راسخ. ومع أنه لم يكن يحق للعبد الإدلاء بشهادته في المحاكم الإسلامية، ومع أن الإساءة إليه كانت تجازى بنصف ما يجازى به من يسيء إلى إنسان حر، فقد كان على سيده إعطاءه الحق الكامل بالطعام، والمعالجة الطبية، والرعاية عند الشيخوخة. وفي حال عدم الالتزام بهذه الأمور على أكمل وجه، كانت تعطي المحكمة الأمر إلى سيده بإعتاقه.

ينص القرآن، في جوهره، على مساواة في المصير بين الذكر والأنثى: ﴿مَنْ عمل سيِّئةً فلا يُجْزى إلاّ مثْلها ومنْ عمل صالحًا مِّن ذكرٍ أوْ أُنثى وهُو مُؤْمنٌ فأُولئك يدْخُلون الجنّة يُرْزقُون فيها بغيْرِ حسابٍ﴾. غير أنه لم يكن هناك مساواة بين المرأة والرجل من حيث مكانتيهما في الإدارة والقانون. وكانت النساء، باستثناء الفقيرات منهن، لا يخرجن من بيوتهن إلا نادراً. وفي حال كانت المرأة تنتمي إلى عائلة تتمتع بالسلطة والغنى والاحترام، فكانت توضع في مكان خاص من البيت يسمى بالحريم. وعند خروجها من البيت، الأمر الذي كان نادراً ما يحصل، كان عليها أن تضع الحجاب. وقد جاء على لسان أحد المشرعين المصريين في القرن الرابع عشر: «**قال بعض الشيوخ الأتقياء حفظهم الله بأن المرأة لا يجب أن تخرج من بيتها إلا في ثلاث مناسبات فقط؛ حين تُزف إلى بيت زوجها، وعند وفاة والديها، وأخيراً، حين تؤخذ إلى قبرها**»(٧١). فالنظام الاجتماعي القائم كان يعزو الحقوق الأسمى والسلطات العليا إلى الرجل.

وكان يحق للرجل أن يطلق زوجته من دون أي سبب، على عكس المرأة التي كانت بحاجة إلى إعطاء التبريرات الكافية لنيل الطلاق(٧٢). وكان يحق للرجل الزواج بأربع نساء، شرط أن يؤمن لهن الحياة الملائمة، واقتناء ما يحلو له من الجواري. وفي المحاكم الإسلامية، كانت شهادة المرأة تعادل نصف شهادة الرجل، وكانت الابنة ترث فقط نصف الحصة التي كان يرثها الابن. ويرى برنارد لويس بأن غير المسلم يستطيع أن يتخطى شعوره بعدم المساواة مع المسلم بمجرد تحوله إلى الدين الإسلامي، ويستطيع العبد أن يصبح حراً ما إن يتم عتقه، غير أن مسألة عدم المساواة بين الرجل والمرأة لن تنتهي أبداً. إذ تبقى من أكثر القضايا استعصاءاً على الحل في الإسلام.

٣- الإسلام والإرهاب

لا شك في أن المسلمين كانوا يلجأون، في الماضي، إلى الحروب من أجل ضم الملحدين إلى الإسلام. فالرسول كان يدخل بنفسه في نزاعات مسلحة مع قبيلته. ويفيد ألبرت حوراني في كتابه «تاريخ الشعوب العربية» مستشهداً بالآية ٩ من سورة التحريم: «**أنه عندما أقدمت قبيلة قريش على إهانة الله ورفض رسالته السامية، سمح الله لرسوله بقتالها وحماية نفسه**»(٧٣). ولكن هل يؤيد هذا الدين العنف والعمليات الإرهابية التي يقوم بها كل من تنظيم القاعدة وحزب الله، وهل يؤيد أيضاً الفتوى التي أقرها آية الله الخميني في العام ١٩٨٩ بإهدار دم الروائي سلمان رشدي(٧٤)؟ ففي كلتا الحالتين، نتبين تحولاً عن

مبادئ الدين الإسلامي. وفيما يتعلق بفتوى آية الله الخميني، نلاحظ وجود ما يناقض الإسلام إذ إنه أصدر حكماً بالإعدام، وجند لديه من يرغب في أن يكون قاتلاً؛ وذلك من دون الأخذ بعين الاعتبار ما تفرضه الشريعة الإسلامية من حق المتهم في الدفاع عن نفسه ضد التهمة الموجهة إليه. من جهة أخرى، هناك تحفظات خطيرة حول العمليات الإرهابية التي يقوم بها كل من أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة[٧٥].

لقد نشطت، بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، طائفة من المسلمين عرفت بالحشاشين في إيران وسوريا ضد بعض الحكام المسلمين الذين استولوا، بنظرهم، على الحكم بطريقة غير منصفة. وقد أطلقوا على أنفسهم اسم «الفدائيين»، و«**هم الذين يضحون بأنفسهم من أجل القضية**»[٧٦]. وكانوا مختلفين كلياً عن الفدائيين الانتحاريين الحاليين. إذ إن ضحيتهم كانت دوماً من القادة السياسيين، أو الدينيين، أو العسكريين باعتبارهم مصدر الشر الأكبر. وكان سلاحهم الخنجر ما يعني أن الحشاش كان عليه مواجهة هدفه بطريقة مباشرة. وبذلك يستطيع التأكد من إتمام العملية على أكمل وجه. إذاً لم يكن هناك عملية انتحارية وإنما عملية قتل على يد مرافقي الضحية. فالشريعة الإسلامية تحرم بشدة الانتحار[٧٧]. علاوةً على ذلك، فإن استهداف المدنيين الأبرياء، كما حصل في مركز التجارة العالمي في الولايات المتحدة على يد الإرهابيين الحاليين، هو أمر لا سابق له في الإسلام. ولهذا السبب، نجد اختلافاً بين الإسلام، العرف الديني الذي يعود إلى ألف وثلاثمائة عام، والإسلام اليوم، ذلك الدين التعصبي الذي أنتج الانتحاريين والإرهابيين، وأصبح عقيدة جديدة تحمل في طياتها مصطلحات مألوفة كالتكفيريين، والصليبيين، والاستشهاديين، والجهاديين، إلخ[٧٨].

إن تلك المصطلحات الدينية، التي وضعتها الأختان برومند، تكشف عن الطبيعة الحقيقية للإسلام التي تتسم بالعنف إذ تصوره كتحد استبدادي حديث لكل من الإسلام التقليدي والديمقراطية الحديثة. إذا كان الإرهاب يتفق حقاً مع المعتقدات الإسلامية كما يدعي الإسلاميون والعديد من أعدائهم، فلماذا إذاً ظهر الإرهاب الإسلامي الدولي فقط في العام ١٩٧٩؟ في الحقيقة، إن هذا الإرهاب الإسلامي الحالي هو عبارة عن ممارسات حديثة بارزة في صراع تام مع الأعراف الإسلامية والأخلاق[٧٩].

وإن لم يكن التطرف الإسلامي الحالي يعود إلى الدين الإسلامي بحد ذاته، فما هي الجذور الحقيقية للإرهاب الإسلامي الذي يقوم به أسامة بن لادن من خلال تنظيم

القاعدة، ومنفذو العمليات الانتحارية في إسرائيل، وغيرهم من الإرهابيين؟ هل يمثلون جانباً واحداً من صدام الحضارات الذي تنبأ به صموئيل هنتنغتون؟ إنهم لا يهدفون، في العموم، إلى إعادة تطبيق المبادئ الإسلامية التقليدية المتشددة. في الواقع، نشأت حركة الأختان لادان ورؤيا برومند في القرن العشرين من بين المنظمات اليسارية واليمينية المتطرفة. ومن ضمن تلك المنظمات أيضاً، هناك حركة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا في مصر في العام ١٩٢٨ مقتدياً بالمبادئ الفاشية في إيطاليا، كما أنها تعمل تحت شعار «عمل، طاعة، سرية». وقد اقتبست فكرة ولائها التام للقائد بوضوح من شعار موسوليني «آمن، أطع، وقاتل». ومن جهة اليسار، نجد الحركة الماركسية التي أسسها أبو الأعلى المودودي في باكستان في أوائل الأربعينيات، وهي حركة معارضة للغرب وللإسلام التقليدي على حد سواء. فإن تلك الآراء من اليسار واليمين تصب في الأهداف نفسها، على حد قول سيد قطب. فقد دعا هذا الأخير إلى تأسيس دولة إسلامية موحدة يقودها حزب إسلامي قد يلجأ إلى كافة الوسائل العنيفة الضرورية من أجل تحقيق أهدافه؛ أي إلغاء النظام الطبقي وإنشاء طبقة اجتماعية واحدة حيث تنعدم فيها الأنانية الفردية ويتوقف استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وهو ما تصفه برومند بـ«لينينية في ثوب إسلامي»، وينتهي بذلك الجشع الذي تتصف به اليوم معظم الكوادر الإسلامية الحديثة(٨٠).

وهكذا، حين يرفض المسلمون، في كل مكان، رفضاً قاطعاً الفكرة التي تقول بأن الإسلام يتغاضى عن الأعمال الإرهابية ويسمح بها، وحين يؤكدون، في المقابل، بأن دينهم هو دين سلام وعدل، وحين ينزعجون من نظرة الغرب إليهم على أنهم المؤيدون ضمنياً للإرهاب، عندها يجب تصديقهم. وفي يومنا هذا، يعارض الإسلاميون الإرهابيون المسلمين بقدر ما يعارضون الغرب. ولكن هذا لا يعني بأن الغرب يثق أن الحضارة الإسلامية تقف في صفه، وبأن المسلمين أنفسهم سيبقون موالين لمبادئهم الإسلامية.

٤- حدود الإسلام

كان الإسلام يعد حضارة بحد ذاتها وذلك لقرون عدة. وكان المسلمون يعتبرون أنفسهم المالكين الحقيقيين والوحيدين لحقيقة الله وكان عليهم نشرها للبشرية بأجمعها. وخلال حروبهم المستمرة ضد الكفار، كانت النتيجة محتمة وأكيدة؛ فالإسلام سينتصر على الكفر، وجميع الشعوب سوف تهتدي إلى هذا الدين. وتؤكد الانتصارات التي حققتها

السلطنة العثمانية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر على الإيمان الراسخ لدى المسلمين. ومع خسارة السلطنة العثمانية لأراضيها في أوروبا، كان السؤال الذي أثاره العثمانيون: «**بماذا أخطأنا؟**»، وليس: «**من فعل هذا بنا؟**». فبحسب برنارد لويس، جاءت الإجابة كالتالي: «**وفقاً لمعظم التقارير، فإن الخطأ الأساسي يعود إلى الانشقاق عن المبادئ الإسلامية والعثمانية القويمة التقليدية، والحل الرئيسي يكمن بالعودة إليها**». غير أن هذا التشخيص أو الحل يتطلب قبولاً واسعاً في الشرق الأوسط»[٨١]. ولكن بما أننا، نحن في الغرب، ننظر إلى التاريخ عينه، فربما يكون تشخيصنا مختلفاً. وتعقيباً على ما حدث، أفاد لويس:

وجاء في كلمة غويتين الشهيرة التي قالها مؤخراً، بأن العالم الإسلامي كان يشكل الحضارة الوسيطة في الزمان والمكان. وكانت حدوده الخارجية تصل إلى أوروبا الجنوبية، وأفريقيا الوسطى، وجنوب آسيا، وشرقها وجنوب شرقها، محتضنة مبادئ جميع تلك الدول. أما من حيث الزمان، فقد كان العالم الإسلامي وسيطاً بين العصور القديمة والعصور الحديثة، إذ تقاسم الإرث الهليني والمسيحي واليهودي مع أوروبا مضيفاً إليه بعض العناصر من ثقافات ومناطق نائية. فمنذ العصور الهلينية وحتى العصور الحديثة، بدا واضحاً أن الحضارة العربية الإسلامية هي التي وعدت بالتقدم نحو حضارة عالمية متطورة، وذلك بدلاً من الحضارات المسيحية اللاتينية واليونانية. غير أن الثقافة المسيحية المحدودة والفقيرة في أوروبا هي التي أخذت في التنامي، في حين عانت الحضارة الإسلامية في الشرق الأوسط من ضعف في الإبداع، والطاقة، والسلطة. إذ إن تقدمها المتلاحق قد حجب بفعل عدم إدراكها لهذا الضعف، وبحثها عن قضاياها، ورغبتها الشغوفة باسترجاع أمجادها السالفة[٨٢].

وفقاً لما قاله هذا المؤرخ، والمشكلة المحيرة التي يواجهها المسلم حالياً، ما ينبغي قوله هو إنه بعد ألفية ونصف تمكنت المسيحية أخيراً من فرض أهم مبادئها، ألا وهو مبدأ الحرية. إذ إن هذا المبدأ هو نفسه الذي ساعد على حركة الإصلاح. وفي هذا يقول هيغل: «**إن جوهر الإصلاح هو قدر الإنسان بأن يكون حراً بطبيعته**»[٨٣]. كما أن علاقة الإنسان بالله لا تنتج عن السلطة الخارجية للكنيسة، ولا عن أحكام الكتاب، وإنما عن قوة الإدراك الداخلي عند الإنسان الذي نضج اليوم بعد قرون طويلة من التنصير الذي كان له الدور في تشكيله. فالعقل ولد المبادئ ذاتها التي فرضت عليه سابقاً. وبما أن قوة الإدراك الداخلي قد حلت

محل السلطة الخارجية للكنيسة فإن العقل قد أعتق من الالتزام بالعقيدة[٨٤]. ولكن كما في البداية، كان ذلك العقل مبنياً على الإيمان الذي من خلاله تحرر. وعرفت المسيحية أيضاً بعد حركة الإصلاح بأن الحقيقة المطلقة لم تكن متوارية خارج نطاق العالم وإنما كانت مجسدة فيه. وقد نشأ جراء ذلك اهتمام قوي بكل عناصر الحياة التي تتحكم بها الآن حرية الإرادة نفسها التي تشكلت في الإنسان من خلال الدين المسيحي. فتلك هي إحدى أسس العالم الحديث.

«لذلك فإن المبدأ المترسخ في العقل الأوروبي مبني على الإدراك الذاتي للعقل الذي يثق بأنه يستطيع تخطي جميع الحواجز والذي يأخذ على عاتقه تحليل جميع المسائل. إن العقل الأوروبي قد عارض العالم بأسره وتحرر منه، ولكنه، في المقابل، عاد وعدل عن هذا التصدي ليضم إليه وإلى طبيعته الموحدة العناصر المتنوعة لهذا العالم. لذلك تعمل أوروبا على نشر هذا التوق الشديد واللامتناهي للمعرفة الغريبة عن الأعراق الأخرى. فنجد الأوروبي مهتماً بما يدور حول العالم، فهو يريد معرفة عالم «الآخر» من أجل أن يواجه هذا الأخير عالمه الخاص»[٨٥].

يعتبر الوحي المسيحي القائم على تجسد الله وعلى الثالوث الأقدس تجديفاً بالنسبة إلى المسلم. ويعد مبدأ الحرية، وحرية الإرادة المنبثقان عن المسيحية واللذان وصلا إلى أوجهما في حياة المسيحيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر تحريفاً كبيراً لهذا الدين من وجهة نظر المسلمين. ولكن هل أبعد هذا الدين المسلمين عن العالم الحديث؟

الدين والعلمانية

بناءً على ما ذكر سابقاً، فإن مبدأ معرفة الحرية عند الإنسان يرتكز على عقيدة الثالوث الأقدس للديانة المسيحية. وعلى الرغم من أن أسس هذه المعرفة كانت حاضرة عند ظهور الدين المسيحي، إلا أنها تطلبت تأملاً تاريخياً وظهور مؤسسات مسيحية لنشر هذه المعرفة في العالم. إن وجود الله المرتكز على عقيدة الثالوث الأقدس، كأساس لإيماننا بهذه العقيدة، وحرية الإرادة الإلهية كنموذج لحرية الإرادة لدينا، شكلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر مصدراً للعديد من العقائد التي تدعو إلى المساواة بين البشر وإلى حقهم المشروع في الحياة، والحرية، والسعي وراء السعادة. كما كانا مصدراً للمبادئ التي تسعى إلى إنسانية جامعة تتخطى الفروقات العرقية، واللغوية، والثقافية، والعقائدية. فهل

يمكن للمسلم اعتماد تلك المبادئ، والإيمان بالعقائد المتعلقة بحقوق الإنسان، وبمبدأ الحرية الذي يعتبر الركيزة لتلك المفاهيم؟

يُعَدُّ عبد الكريم سروش، الفيلسوف الإيراني المعاصر والشهير، من أوائل المسلمين الذين عملوا على التوفيق بين الإسلام والعالم الحديث، وعلى حث المسلمين أولاً، على التمييز بين الدين بمفهومه الأزلي، وبين فهمنا للدين على أنه محكوم بحدود الزمان والمكان. ويفيد سروش: «**أن الله هو الذي يوحي بالدين، بينما يعود إلى الإنسان فهمه وتطبيقه**»(٨٦). إن معرفة الدين هي معرفة إنسانية بحتة وتخضع لإملاءات المعرفة الإنسانية. وبالتالي فهي معرفة ناقصة، ومشوشة، وغير كافية، ومحدودة بحدود ثقافة الإنسان. إن الدين ثابت بطبيعته، ولكن المفاهيم الدينية هي التي تتغير. وبحسب سروش، «**فإن الدين الثابت والأزلي يستدعي معرفة دينية ومتغيرة**»(٨٧). أما بالنسبة إلى القرآن، فهو يذكر السامع بأن ليس كل ما قاله النبي نبوءة، وليس كل ما كتبه يرتبط بالدين(٨٨). فالقرآن عمل يتطلب تفسيراً وتحليلاً من قبل الإنسان.

ويتعاطف سروش مع أولئك الذين يميزون بين مبادئ القرآن التي ظهرت في مكّة، وهي مبادئ شاملة تتناسب وكل الأزمان، وبين المبادئ الأخرى التي ظهرت في المدينة المنورة، والتي تتناسب مع الزمان والظروف آنذاك. وبالتالي، ترتبط بتلك الأخيرة أكثر المبادئ إساءةً إلى المفاهيم الحديثة، وهي تلك المتعلقة بالأشكال الثلاثة لعدم المساواة التي تمت دراستها سابقاً، بالإضافة إلى البيانات العسكرية الأكثر عنفاً التي يصدرها، حالياً، الإسلاميون الغاضبون.

واستناداً إلى مفهوم المعتزلة، ينطلق سروش من عقلانية غير متلازمة مع الدين، أي من فكر حر مستقل ومطلق الحداثة، وبعيد كل البعد عن أية افتراضات مسبقة. ويرى أن الإنسانية الحديثة تهدف إلى خلق العالم على صورتها، إذ لا تتقبله بالصورة التي هو عليها. فليس هناك من شيء لا يقبل الجدل(٨٩). وقد أدى به هذا الأمر إلى استخلاص رؤية أساسية حديثة حول العلاقة بين الحكومة المدنية والدين. وبرأيه، فإن كل حكومة بحاجة إلى مصدر تشريع وإطار عمل يخضع لمعايير معينة وذلك من أجل أن تصمد وتستمر. وفي يومنا هذا، لا بل على مر الثلاثمائة سنة الأخيرة، تستمد الحكومات شرعيتها عبر الإجماع الشعبي. كما يتم تحديد معايير الحكم، نظرياً على الأقل، من خلال قوانين تضعها مؤسسات تمثل الشعب(٩٠). ولكن بنظر سروش، فإن الحاجة إلى فصل الدين عن الدولة

نابعة من الإيمان بالحقيقة المطلقة للدين والخوف من تشويهها وتدنيسها من قبل المصالح السياسية. وباختصار، فإن هذه الحاجة نابعة من القناعة السائدة بعدم استمرارية وتعارض العالم المقدس والعالم الدنيوي، ما يؤدي إلى عدم ثبات العلاقة. وبالتالي، لا يمكن الجمع بين الاثنين في نظرية واحدة، كما هو الحال بالنسبة إلى العلاقة بين الله والإنسان في الديانة المسيحية.

في إطار ديمقراطية ليبرالية، نفترض بأن الفرد يملك الحق في تأكيد وحفظ مصالحه الخاصة في ظل تنافسه مع مصالح الآخرين في المجتمع. وينتهي التصادم بين تلك المصالح بمجرد تنازل الفرد عنها من أجل الآخر. وقد يكون هذا الحل ممكناً حين تكون مصالح الأفراد خاصة بهم، غير أن الدين يجعل مطالب المؤمن عامة. كما يمكن أن يجاز هكذا حل إذا ما كانت العلمانية لدى المواطنين أقوى من مختلف انتماءاتهم الدينية. في الواقع، تقوم الثقافة العلمانية الحديثة بدمج اليهود، والمسلمين، والمسيحيين ببعضهم البعض. ويكون هذا الأمر مقبولاً فقط في حال الاعتراف باختلافاتهم. ويستطلع هيغل، في كتابه «قراءات حول فلسفة الدين»، مختلف الأديان التي اكتشف الإنسان من خلالها صلته بالله وذلك من ناحية تطابقها مع ما يسميه بـ«الفكرة». كما يكشف حقيقة كل دين، وهي حقيقة يحافظ عليها الدين المسيحي الذي يعد ديناً مطلقاً، والذي بدونها ما عرف الفكرة المطلقة. سأستكمل تبرير موقف هيغل في وقت لاحق ولكنني قد ألاحظ هنا بأنه ما من يهودي أو مسلم معاصر يحترم ذاته يميل للقبول بنظرية هيغل(٩١).

علاوةً على ذلك، تبقى مقاربة هيغل، على الرغم من التبريرات التي يمكن أن تعطى إليها، نظرية مجردة حتى تتخذ لنفسها واقعاً في الحياة العلمانية والدولة. ومن الواضح أننا، نحن في الغرب، لم نتوصل بعد إلى تحقيق تلك الوحدة بين العقائد بشكل يحفظ مكانة كل واحدة في ثقافة مشتركة. لذلك علينا أن نتعايش مع ما لدينا في دولة تؤكد على حرية المعتقد الديني والتعبير عند الفرد، وذلك في إطار ما يخدم المصلحة العامة.

في العام ١٧٩٠، قام جورج واشنطن، في رد منه على رسالة حميمة تلقاها من التجمع الديني اليهودي في نيوبورت، في رودآيلند، بتحرير ما يلي: «يحق لمواطني الولايات المتحدة الأميركية تهنئة أنفسهم لتقديمهم للعالم نماذج تستحق أن يحتذى بها عن سياسة ليبرالية موسعة. فالكل يملك، على حد سواء، حرية المعتقد وحصانات المواطنية. ولم يعد بالإمكان التكلم، اليوم، عن التسامح وكأنه، من خلال تساهل إحدى طبقات المجتمع،

أستطاعت الأخرى ممارسة حقوقها الطبيعية. ولحسن الحظ، فإن حكومة الولايات المتحدة، التي لا تجيز التعصب الأعمى، ولا تسمح بالاضطهاد، تلزم من يعيشون في حمايتها أن يتصرفوا كمواطنين صالحين وأن يعطوا دعمهم الكامل لها دائماً. فليستمر أبناء إبراهيم وأحفاده بالتمتع بالنية الطيبة تجاه المواطنين الآخرين. وليعش كل منهم بأمان تحت كرمته وشجرة التين لديه، من دون الشعور بالخوف والقلق. ولينشر رب الرحمة كلها النور وليس الظلمة في دروبنا، وليجعلنا جميعنا، باختلاف أهدافنا، نافعين هنا، وسعداء إلى الأبد في الوقت المناسب له وبالطريقة التي يريدها.»

الهوامش

(١) صحيفة National Interest، العدد ١٦، صيف ١٩٨٩، والتي أعقبها في العام ١٩٩٢-The End of His tory and the Last man، نيويورك.

(٢) راجع مقالته بعنوان: Reply to my Critics في المسألة التالية الواردة في National Interest، خريف ١٩٨٩.

(٣) الفاشية، بمفهومه، هي «كل حركة منظمة مغالية في القومية تتذرع بالخلاصية»، مثل اليابان الإمبريالية التي سعت للسيطرة على جيرانها. راجع End of History، العدد ١١.

(٤) وحده الدين الإسلامي يتبنى مفهوم الدولة الثيوقراطية كبديل عن الديمقراطية الليبرالية. ويقول فوكوياما بأنه من الصعب التصديق بأن الحركة ستتخذ معان شمولية.

(٥) راجع مقالة End of History، في العدد ١٣ من Nationalin

(٦) المرجع نفسه، العدد ٥.

(٧) المرجع نفسه، العدد ١٨.

(٨) المرجع نفسه، العدد ٢٨.

(٩) «جازفت الولايات المتحدة بتجربة عظيمة ونبيلة في ظل غياب التجارب السابقة ألا وهو الفصل الكلي بين الكنيسة والدولة. فلا يوجد بيننا كنائس أسسها القانون. فعقل المقيدين ترك حراً. ولكل فرد الحرية بعبادة خالقه بحسب عقيدته الخاصة. ومكاتب الحكومة مفتوحة، على قدم المساواة، أمام الجميع. وما من أعشار مفروضة من أجل دعم سلطة الكنيسة، وكذلك لم يعد حكم الإنسان اللامعصوم هو عقيدة الإيمان الواثقة والمعصومة. وإذا أراد المسلم أن يعيش بيننا، سيحظى بالإمتياز، الذي يضمنه له الدستور، بعبادة خالقه وفقاً للقرآن. ويمكن للهندوس نصب ضريح لبراهما لو رغبوا بذلك. وباستطاعة اليهودي المضطهد والمسحوق في البلدان الأخرى أن يقيم مسكنه بيننا من دون أن يشعر بالخوف. فالحكومة درع له تدافع عنه وتحميه. تلك هي التجربة العظيمة التي قمنا بها وتلك هي النتائج المبهجة التي أثمرت عنها. فنظامنا كحكومة حرة سيكون ناقصاً وغير تام من دونها». وردت هذه الكلمات في رسالة يعود تاريخها إلى ١٥ تموز/ يوليو ١٨٤٣، إقتبسها برنارد لويس، في مقالة له بعنوان The Roots of Muslim rage، في مجلة Atlantic monthly، مجلد رقم ٢٦٦، العدد ٣، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠.

(١٠) تلا هذه المقالة كتاب له بعنوان the Clash of Civilizations and the Remaking of World Order، نيويورك، ١٩٩٦.

(١١) يصف هيغل نابوليون، خلال معركة Jena التي جرت في العام ١٨٠٦، بأنه «روح العالم على صهوة جواد».

(١٢) ويقول هنتنغتون في اقتباس عن ر.ر. بالمر: «حروب الملوك انتهت، وبدأت معها حروب الشعوب».

(١٣) جاء في كتاب Clash of Civilizations، ص ٢١: «إن المحور المركزي المقبل لسياسات العالم سيكون على الأرجح الصراع ما بين الغرب وباقي العالم واستجابة الحضارات غير الغربية لقيم وسلطة الغرب.»

(١٤) إن حضارات العالم، التي يبلغ عددها ستة أو سبعة في اعتقاد هنتغتون، تتضمن الحضارات: الغربية، الكنفوشية، اليابانية، الإسلامية، الهندوسية، السلوفاكية الأرثذوكسية، والأميركية اللاتينية، وربما الإفريقية.

(١٥) راجع الكتاب عينه، ص٣٠.

(١٦) راجع الكتاب عينه، ص. ٥٤، اقتبست عن دراسة لهاري س. ترياندیس.

(١٧) عندما انتهت الإنتخابات الحرة في الجزائر بفوز الأصوليين، رأى العسكريون الحاجة في تولي السلطة مع استمرار النتائج المدمرة.

(١٨) يعطي هنتنغتون أمثلة عن هذا الأمر، وذلك حين طالب مجلس الأمن، الذي شرع حرب الخليج الأولى، ليبيا بتسليم المشتبه بهم في حادثة تفجير طائرة اللوكربي وفرض عقوبات عليها حين رفضت ذلك.

(١٩) راجع كتاب The Clash of Civilizations، ص٢٧.

(٢٠) راجع كتاب The Clash of Civilizations، ص٢٠. في الصفحة ٢٥٦ من الكتاب عينه، يقدم هنتنغتون إحصائيات للتأكيد على أنه كلما نظرنا إلى المحيط الإسلامي، نرى المسلمين يواجهون مشاكل في التعايش مع جيرانهم.

(٢١) لا سيما من قبل فيليب جنكينز، في كتابه The Next Christendom، أوكسفورد، ٢٠٠٢ الذي يسلط الضوء على النمو السكاني الضخم للمسيحيين في جنوب الكرة الأرضية.

(٢٢) The Clash of Civilizations، ص٨٨.

(٢٣) The Clash of Civilizations، ص ٥١.

(٢٤) راجع مقالة ?If not civilizations, What، في صحيفة Foreign Affairs، كانون الأول/ نوفمبر ١٩٩٣ المتوفرة على الإنترنت على الموقع الإلكتروني التالي: /http://www.foreignaffairs.org

(٢٥) The Clash of Civilizations، ص٤٩.

(٢٦) راجع مقالة The Future of History، في مجلة Policy Review المتوفرة على الإنترنت على الموقع الإلكتروني التالي: http://policyreview.org/JUN02/kurtz.html

(٢٧) إن العنف الذي ينشده المسلمون وولعهم بالقتال حقيقتان بارزتان في أواخر القرن العشرين ولا يستطيع المسلم أو غير المسلم إنكارهما. The Clash of Civilizations، ص٥٩.

(٢٨) يفيد ميرزاد برروجردي: «إن العديد من الناس يرون بشكل قاطع بأن العصرية الغربية تشبه المساومة الفاوستية (حين ضحى فاوست بابنه فقدمه للشيطان من أجل المعرفة) التي يجب أن تتخلى فيها عن هويتك وارتباطك الديني والعقائدي والقبلي والعائلي التقليدي من أجل مادية العصر الحالي». راجع Iranian Islam and the Faustian Bargain of western Modernity.

(٢٩) المقالة بعنوان If not civilizationsí

(٣٠) كما يفيد غلين بيري: أصبح من المستحيل إستخدام حقائق من أجل تنفيذ مبدأ عام يعلن مؤيدوه أنفسهم بأنه مبدأ مبسط إلى حد كبير وأنه يهمل العديد من الأمور، ويشوه بعضها، ويحجب أخرى». راجع كتاب Huntington and his Critics: The West and Islam، لصاموئيل هنتنغتون، Arab Studies Quarterly، مجلد رقم٢٤، شتاء ٢٠٠٢، ص٣٤.

(٣١) بعد شهر من اعتداءات الحادي عشر من أيلول، كتب فوكوياما: «ونبقى في نهاية التاريخ...»

(٣٢) راجع Kurtz

(٣٣) راجع Religious Communities in the Struggle for Human Rights، روبرت تاير، Christian Century، ٢٨أيلول/ سبتمبر، ١٩٨٨، ص٨٣٥.

(٣٤) راجع كتابي Judaism and Human Rights، دار النشر Milton Konvitz، ١٩٧٢، وHuman Rights in Religious Traditions، ١٩٨٢، لرابي دانيال بوليش الذي يفيد بأن فكرة حقوق الإنسان مشتقة، بحسب التعاليم اليهودية، من التأكيد اللاهوتي الأساسي للإيمان اليهودي. وفي كتابه Human Rights and Human dignity: an Apologetic for the Transcendent Perspective، ١٩٨٦، يقدم جون مونتغمري خلاصة شاملة تفيد بأن الحقوق التي أعلن عنها في الإعلان العالمي منبثقة عن تعاليم الإنجيل

المعصومة. وفي العام ١٩٨١، قامت المؤسسة الإسلامية Islamic Foundation باعتماد ونشر «الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان» والذي أصبح رسمياً وموثقاً حتى أنه ذكر في إحدى القرارات الصادرة عن محكمة إسلامية في باكستان. وهذا الإعلان يدعم إعلان الأمم المتحدة مبرهناً ومعرفاً تلك الحقوق على أنها مشتقة من الشريعة الإسلامية والقرآن.

(٣٥) راجع كتابي Hegel and Judaism: a Flaw in the Hegelian Mediation، ١٩٧٠ و The legacy of Hegel: Proceedings of the Marquette Hegel Symposium، ١٩٧٣، إميل فاكنهايم.

(٣٦) راجع Lectures on the Philosophy of Religion، هيغل، Peter C. Hodgson، كاليفورنيا، ١٩٨٤، ٤٢٧. المقالة بعنوان Hegel and Judaism. «ما تم تمييزه، لا يتمتع بحق الوجود، فهو خارج إطار الأحدية. وعناصره مختلفة لذلك فهو شيء محدود ومتناه لا يمكن أن تكون له غاية...». «العدالة بدورها هي الدليل على بطلان أو مثالية هذا الشيء المتناهي. في الواقع، إن الشيء المتناهي لا يتمتع بالإستقلالية الحقيقية. وإن تجلي الله كقوة هو ما يهب الأشياء المتناهية الحقوق التي تتمتع بها..»

(٣٧) راجع Hegel and Judaism، iii، ٦٨١.

(٣٨) راجع Hegel and Judaism، ii، ٤٣٦.

(٣٩) راجع Hegel and Judaism، ii، ٦٨٤.

(٤٠) راجع Hegel and Judaism، ii، ٤٣٧.

(٤١) راجع Hegel and Judaism، ii، ٤٣٨.

(٤٢) راجع What Kind of Religion is Islam?، أيار/ مــــايو، ٢٠٠٤، ص٤٢-٤٨، كـــتب المؤرخ الكاثوليكي الفرنسي المعروف، آلان بوزانسون، موسعاً، حول ما يعتبره تفسيراً خاطئاً للإسلام مستنداً على ما وجده في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عموماً، والكنيسة الفرنسية خصوصاً. وقد توصل إلى فرضيتين اثنين، الأولى بأن القرآن كتاب مقدس مترابط نوعاً ما بكتابات اليهودية والمسيحية المقدسة، والثانية بأن الإسلام يقع ضمن التعاليم الإبراهيمية للمسيحية واليهودية.

(٤٣) راجع Besançon، ص.٤٢-٤٣

(٤٤) إن أبراهام هو الأب الأول المشترك لبني إسرائيل، وبعدها للمسيحيين. ولكن عند المسلمين، يعد آدم الأب الأول. فإبراهيم هو الذي بنى الكعبة وأسس فكرة الحج إلى مكة. راجع الكتاب نفسه ص٤٥.

(٤٥) راجع كتاب A History of Christianity in Asia، صاموئيل هيو موفات، نيويورك، ١٩٩٢، ص٣٢. «ولكن بعد أن عاشوا ٣٠٠ عام على الأقل في شبه الجزيرة العربية، لم يقم المسيحيون، سواءً كانوا نسطوريين أو من القائلين بأن المسيحيين طبيعة واحدة، بترجمة «العهد الجديد» إلى العربية». ويعتقد بأن أميراً عربياً أمر بترجمته حوالى العام ٦٣٥ غير أن الأجزاء الأولى الباقية تعود إلى القرن التاسع». موفات، ص٢٦٣.

(٤٦) ينفي القرآن أن يكون المسيح قد مات على الصليب، على سبيل المثال. فقد أنجاه الله واستبدله بشخص آخر.

(٤٧) راجع كتاب Besançon ص ٤٤-٤٥، إن هذا الميل إلى إنكار حقيقة كل ما يتعارض مع القرآن أمر مخيب بالنسبة إلى أولئك الذين يرغبون في دراسة هذه الإختلافات بموضوعية. وهذا ما يفسر أيضاً الصعوبة في تحويل المسلم إلى غيره من الأديان وحتى في إبعاده عن معتقداته وعاداته العائدة إلى القرون الوسطى. إذاً فإن الحوار ممكن فقط مع المسلمين الذين تخطوا حدود التقبل الحرفي لكتاباتهم المقدسة.

(٤٨) راجع كتاب Philosophy of History، ص ٣٦.

(٤٩) راجع Besançon، ص٤٦.

(٥٠) Lectures on the History of Philosophy، هيغل، Haldane and Simson، الفصل الثالث، ص٣٢. ما قيل هنا حول التعاليم العشرية صحيح إذ أنها تعاليم الأغلبية الواسعة من المسلمين حتى يومنا هذا، وليست تعاليم المعتزلة.

(٥١) نقلت هذه العناصر عن موسى مايمونايدز، في The Guide of the Perplexed بالإقتباس عن هيغل، «Arabic Philosophy» في Lectures on the History of Philosophy، براون، ص٣٧.

(٥٢) راجع براون، ص٣٨-٣٩.

(٥٣) راجع A History of the Arab Peoples، ألبير حوراني، لندن، ١٩٩١، ص١٢.

(٥٤) The Christian Origin of contemporary Institutions، جايمس دول، الجزء الثاني، ديونيزيوس، المجلد الثامن، ١٩٨٤، ص٧٩.

(٥٥) المرجع نفسه، ص٨١-١٠٣.

(٥٦) The Middle East، برنارد لويس، لندن، ١٩٩٥، ص٢٧٤.

(٥٧) راجع Distinguishing between Islam and Islamism، دانيال بايبز، مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ٣٠ حزيران/ يونيو ١٩٩٨ على الموقع الإلكتروني التالي: http://www.sullian-county.com/id3/islamism.htm

(٥٨) الشرق الأوسط، ٥٢-٥٣.

(٥٩) إن رجال الدين الذين تعهدوا بإصلاح الدين الإسلامي يميزون بين أجزاء القرآن التي أنزلت في مكة، حيث كان محمد رسولاً بحق، وتلك التي أنزلت في المدينة حيث تولى حكم دولة وخلفاؤه إمبراطورية. ويجادلون في أن ظهور الوحي في المدينة يعد التطبيق الوحيد المحتمل للسلوكيات ومبادئ الدين.

(٦٠) هناك رواية رائعة سردها برناد لويس عن مسلم زار إنكلترا في القرن الثامن عشر وترك أثراً قيماً فيها. فقد وصف زيارةً له ل«بيت العامة»، في مهمة مذهلة لإرساء القوانين وتحديد العقوبات المفروضة على الآثمين. «على خلاف المسلمين، قال لقرائه بأن الإنكليز لم يرضوا بقانون يوحى إليهم من السماء ولذلك فقد سنوا قوانينهم بأنفسهم». راجع The Middle East، لندن.

(٦١) «التعصب» هو حماس لأمر مجرد. وفي الإسلام، التعصب هو الإرتباط الكلي المدمر والسلبي بالقوانين المشرعة.

(٦٢) وصف ملائم لعبد الكريم سوروش، وهو أول عالم دين وفيلسوف سياسي إسلامي إيراني.

(٦٣) لهذا السبب أيضاً يرتل القرآن بدل من أن يقرأ. «إن القراءة الفردية للإنجيل شكلت تقدماً ثورياً من الناحية الفكرية إذ أحدثت إنتقالاً حاسماً، يمكن أن نصفه بأنه انتقال من البلاغة إلى التفسير. أما الثقافة الأولية المؤسسة في العالم العربي والتي تستند على التعاليم النبوية، لم تحث يوماً على قراءة القرآن، وحتى بعد أن أصبح متوفراً بكثرة بعد مرحلة بداية الطباعة في القرن التاسع عشر. وحتى يومنا هذا، ما زال القرآن يرتل، ويغنى، ويردد عن ظهر قلب ولكنه نادراً ما يقرأ. وبقي تفسيره حكراً على علماء الدين. علاوةً على ذلك، فهو تفسير يستند إلى الأحاديث والتفسيرات النبوية أكثر منه إلى النص المقدس». راجع Neopatriarchy: A Theory of Distorted Change in Arab Society، هشام شرابي، نيويوك، أكسفورد، ١٩٨٨، ص٨٧. في اقتباس من Can Islam be Secularized?، دار M.R. Ghanoonparvar and Faridoun Farrokh للنشر، لاريدو، TX، ١٩٩٤، ص٥٨.

(٦٤) ألبرت حوراني، ص٤٧.

(٦٥) ولكن القرآن واضح بهذا الخصوص إذ لا يجب إجبار أي شخص على التحول إلى الإسلام. «لا إكراه في الدين» الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٦٦) حوراني، ص٥٤.

(٦٧) على الرغم من أن القرآن لم يحرم هذه التصاوير بشكل واضح، فقد اعتبر المشرعون المسلمون بأن رسم الأجسام الحية غير لائق وغير جائز في المباني الدينية معللين هذا الأمر بأن لله وحده القدرة على خلق الحياة. راجع حوراني ص٥٦.

(٦٨) حوراني، ص٥٦.

(٦٩) بما أن محمداً (ص) لم ير أي تعارض بين اسم الله كما تجلى لأنبياء بني إسرائيل ولعيسى والحواريين، قد يتساءل المرء لم لم يستخدم الإسم العبري أو الإغريقي بدلاً من كلمة «الله» وهو اسم الذات العليا في العربية عند الوثنيين. إنما هذا الأمر هو نتيجة عدم توفر ترجمة عربية للإنجيل بحسب ما ورد سابقاً.

(٧٠) راجع What Went Wrong، برنارد لويس، أوكسفورد، ٢٠٠٢، ص٨٢-٩٥، و The Middle East، ص٢٠٥-٢١٧. وقد قام المؤرخ اللبناني، حوراني، المولود في إنكلترا بمعالجة هذه المسائل. ص ١١٦-١٢٢.

(٧١) نقلاً عن حوراني، ص١٢٠.

(٧٢) من الأسباب التي تسمح للزوجة بطلب الطلاق من الزوج: العجز الجنسي، الجنون، حرمانها من حقها في الملبس والمسكن والإعالة والعلاقات الجنسية.

(٧٣) نقلاً حن حوراني، ص١٨. ورد في الآية ٩ من سورة التحريم: «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير».

(٧٤) «الفتوى» ليست، كما قد يعتقد البعض من الطريقة التي أصدر بها آية الله الخميني فتواه، بأنها عقد إجرام. وإنما هي حكم أو رأي شرعي يقال في إحدى مسائل الشريعة الإسلامية. والمشرع المجاز له إصدارها هو المفتي.

(٧٥) في ٢٣ شباط/فبراير ١٩٩٨، أصدر بن لادن والمجاهدون في مصر، وباكستان، وبنغلادش فتواهم الخاصة وذلك في «إعلان الجبهة الإسلامية العالمية عن الجهاد ضد اليهود والصليبيين» مؤكدين بأن قتل الأميركيين وحلفائهم، المدنيين والعسكريين منهم على حد سواء، واجب فردي على كل مسلم قادر على القيام بذلك في أي بلد، وذلك حتى تحرير مسجد الأقصى والحرم المكي من سيطتهم، وحتى رحيل جيوشهم المنكسرة والأذلة عن أرض الإسلام وفقدان قدرتها على تهديد المسلمين. راجع The Crisis of Islam، برنارد لويس، ٢٠٠٣، الجزء الخامس والعشرين.

(٧٦) المرجع عينه، ص١٢٣.

(٧٧) راجع هذا الحديث النبوي. يقول الرسول (ص): «منقتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا.»

(٧٨) وكذلك، هناك اخلاف بين «إسلامي» و«مسلم» حيث أن المصطلح الأول يتعارض حالياً مع الدين الإسلامي الحقيقي.

(٧٩) Terror, Islam and Democracy، لادان بوروماندو ورويا بوروماندو، صحيفة الديمقاطية، ٢٠٠٢، ص٦.

(٨٠) المرجع عينه ص٧-٩. راجع أيضاً Can Any Good Come of Radical Islam? A Modernizing Force? Maybe، فرانسيس فوكوياما وناداف سامين، صحيفة Wall Street، ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٨١) What Went Wrong، ص٢٣.

(٨٢) The Middle East، ص٢٧٠.

(٨٣) Philosophy of History، ص٤١٧.

(٨٤) لم تعد الفلسفة في خدمة اللاهوت.

(٨٥) Philosophy of Mind, "Anthropology"، هيغل، ص٢٩٣.

(٨٦) Islamic Revival and Reform in his Reason, Freedom and Democracy in Islam، أوكسفورد ونيويورك، ٢٠٠٠، ص٣١.

(٨٧) سوروش، ص٣٢.

(٨٨) ورد هذا الأمر في خطاب ألقي في أيار/مايو ٢٠٠٤ في الجامعة الكاثوليكية في واشنطن.

(٨٩) راجع The sense and essence of secularism، المرجع عينه، ص٥٥.

(٩٠) سوروش، ص٥٧.

(٩١) في الجدال الشهير بين إيميل فاكنهايم وجايمس دول في ال Marquette Symposium في العام ١٩٧٠، والذي أكمل في ال Dialogueمن العام نفسه، إعترض فاكنهايم قائلاً بأن هيغل لم ينصف اليهودية أمام الأديان الأخرى غير المسيحية.